جميع الحقوق محفوظة .Copyright © 2019

تكريم أمين الباشا

تكريم أعلام الثقافة في لبنان والعالم العربي

تكريم أمين الباشا

الثلاثاء 2008/3/4

كلمة المحامي جورج بارود

كلمة جمانة حداد

كلمة الفنان أمين الباشا

كلمة المحامي جورج بارود

بيروت اليوم تختلف كثيرًا عن بيروت الامس.

فهي اليوم عاصمة الشوارع الواسعة والابنية الفخمة، شيدت متاجرها ومكاتبها لكبار رجال الاعمال، وأنشئت مطاعمها وملاهيها لطبقة من الميسورين محددة جدًا.

أما بيروت الامس، فكانت موئل الفنانين والشعراء، والصحافيين والتجار، والصنّاع وأصحاب المهن الحرّة؛ فيها يختلط الغني بالفقير، والمثقف بالاميّ، وبين أروقتها يلتقي اللبنانيون على مختلف مشاربهم ومذاهبهم.

باختصار كانت بيروت عاصمة كل لبنان، فأصبحت اليوم مركزًا لحفنة من الاثرياء، جلّهم من أبناء الخليج العائم على النفط.

في رحاب بيروت الشعر والثقافة، كانت المواسم الذهبية للبنان تتوالى؛ وفي العام 1932 تحديدًا ولدت عين ثاقبة وقلب نابض، طوّعا الريشة والقماش ونقلا النبوغ اللبناني إلى متاحف أوروبا وبعض البلدان العربية، يومها ولد مكرمنا الفنان أمين الباشا.

منذ الخامسة عشرة من سنيه بدأت ملامح التأثر بالفن تظهر على ملامح أمين لشغفه بالفنان الهنغاري ستيفان لوكوس الذي كان يسكن بيروت آنذاك، ولا غروَ في ذلك باعتباره كان يرافق خاله الرسام والموسيقي خليل مكنية، مما شجعه على الالتحاق بالاكاديمية اللبنانية للفنون الجميلة (ألبا) ثم متابعة دروسه بعد تخرجه منها عام 1957 في المعهد الوطني العالي للفنون الجميلة ثم في La Grande Chaumière

مع هنري غوتز.

وبعدها بدأ التعليم في الـ (ألبا)، والجامعة اللبنانية– معهد الفنون الجميلة وفي إيطاليا والكويت وعمّان.

أيها السادة،

لقد دأبت حركتنا الثقافية في أنطلياس في كل مهرجان سنوي للكتاب، على تكريم فنان تشكيلي إيمانًا منها بأن هذا الفن هو من أرقى درجات الثقافة، خاصة عندما يكون المكرّم قد أغنى المتاحف عطاء وأبرز صورة لبنان وأغنى المتاحف المحلية والعربية والاجنبية، وبات ممن يتصدر عالم الحداثة في هذا الميدان.

فمن صالونات بيروت ومصر والكويت والاردن، إلى متاحف فرنسا وإسبانيا وإيطاليا ولندن تنقل أمين الباشا بروائعه، ومن جريدة محلية أو أجنبية إلى محطة إذاعية أو تلفزيونية، ومن معهدٍ عالٍ أو كلية جامعية، ومن

لوحة على القماش إلى قطعة من الموزاييك أو جدرانية أو سجادة تحفة، كان أمين الباشا ينقل بإلهامه وأنامله وريشته عصارة وجده وإحساسه واكتنازه، ويترجمها صورًا تعظم الخالق وتخلّد الجمال وتنشر في كل مكان مجد لبنان.

في يومك أيها المكرّم الاستاذ أمين الباشا، يعود بنا الزمان إلى لبنان المرتجى، إلى الوطن الذي كان، يوم كانت المتاحف تنتشر على مدى العاصمة ويوم كان الناس يتسابقون على شبابيك الصالات لحجز كرسي لحضور مسرحية أو مشاهدة فيلم سينمائي، يوم كانت بيروت تعج بالامسيات الشعرية ومحاضرات الندوة اللبنانية، والنشاطات الفكرية والثقافية والمعارض ولقاءات الحركات الطلابية والنقابية.

في يومك، نعود ولو للحظات إلى وطن كان واحة الشعراء والفنانين والمفكرين، إلى زمن البحبوحة الفكرية والمادية، إلى قطعة الجمال والحب والثراء التي كوّنها الله فشوهناها وجعلنا منها مرتعًا للبشاعة والحقد والفقر.

ولانك تعيدنا إلى تلك الايام الخوالي،

ولانك ساهمت في جعلها كذلك فرفعت اسم لبنان،

نكرمك.

كلمة جمانة حداد

حضرات السيدات والسادة، أيها الحفل الكريم

"ليس لرسّامٍ من أعداءٍ جدِيين وحقيقيين إلاّ لوحاتُهُ السيّئة"، يقول هنري ماتيس.

يطيب لي أن استهل هذا اللقاءَ العزيز على قلبي بهذا الاقتباس، وأن استدرجه الى حيث نحن، وإلى لوحة أمين الباشا تحديداً، لكي أقول:

ليس لهذا الرسّامِ الجالسِ بيننا اليوم، من أعداءٍ جدِيين وحقيقيين، إلاّ البشاعة. فهو لم يعادِ في حياته الشغوفة هذه إلاّ البشاعة. ولم يعشق إلاّ عشقَ الجمال، ولم يُنجِز في مسيرته الفنية الطويلة والمتواصلة إلاّ الجمال. لهذا السبب بالذات، عندما تشاهدون لوحته لا بدّ ستقعون في الفخّ. فهي لوحةٌ تخطف الأبصارَ والألباب لأنها موصولةٌ بفلسفةِ هذا الجمال.

وإذ تتيحون لي فرصةَ أن أكونَ بينكم في هذا التكريم، فإن من المفارقات النقدية أن أتولّى بصفتي شاعرةً ومسؤولةً ثقافيةً، وعاشقةَ لغاتٍ وآداب، تقديمَ رسّامٍ راسخٍ كهذا الرسّام، لا يحتاج الى تقديم، وخصوصاً في الحركةِ الثقافية – انطلياس، هذا البيتِ الثقافي العريق الذي لا يحتاج هو الآخَر الى من يُلقي عليه تحيةَ تقدير، من فرطِ التقديرات المستحقة التي تنهمر عليه من كل حدب وصوب.

وإذا كنتُ أراني أتحدث في لوحة الباشا، فإني أريد لمداخلتي هذه أن تكون شهادةً في عشقِ الشعرِ للرسم، وفي التبادل الجمالي بين هذين الإرثين الإبداعيين، باعتبارِهما ينتميان الى فلسفةٍ واحدة هي فلسفةُ الجمال.

أيها السيدات والسادة،

ليست مهمتي النقدَ التشكيلي، وليس لي أن أخوضَ في غمارِه المعياري والتقني، بحثاً عن مفاتيحه وأدواته، وكشفاً لتجلياتِها في لوحةِ أمين الباشا، فأنا شاعرة، وسأنظر في هذه اللوحة بهذه العدسة الشعرية ليس إلاّ.

ذلك أن مهمتي هنا ليست الدفاعَ عن لوحةٍ ممهورةٍ بتوقيعِ أمين الباشا، أمضت، وإياه، نحواً من خمسينَ عاماً في تدويخِ الجدران التي تحتلُها، وإغواءِ العيون التي تنظر فيها واليها.

بل أنا هنا الى جانبِ أمين الباشا، ومعه، لأني أحبّ هذه اللوحةَ بحواسي، ولأني أنحاز اليها انحيازاً جمالياً وفنياً، باعتبارِها فعلاً جمالياً ينتمي الى الرسم الصافي، على غرار الشعر الصافي، والموسيقى.

وعندما يجري الحديثُ على الرسم الصافي، فعليَّ أن أسارعَ الى توضيحِ مسألةٍ في غاية الأهمية. إليكموها: أن

يرسمَ الرسّامُ ما يراه، أيها السيدات والسادة، فهذا ليس إنجازاً مهماً، وهو لا يعطينا أن نصفَه بالرسّام الكبير.

الرسّامُ الكبير هو الذي يرسم ما سنراه، لا ما رأيناه.

على هذا المنوال من الحديث أتابع القول: على كلِّ رسّامٍ، كلِّ شاعر، كلِّ روائيّ، كلِّ موسيقيّ، كلِّ عاشق، أن يكون مبدعاً كبيراً في مجاله، لا "مفيداً" فحسب. شرطُ الفائدة ضروريّ لكنه لا يكفي. عليه أن يُنجز شيئاً يتخطى الفائدةَ الملموسةَ المرجوّة منه: وأعني أن يصنع الجمالَ. وأن يخلقَه. فائدتُهُ مرتبطةٌ حكماً بخلق الجمال. وآنذاك فقط يكون خلاّقاً.

أمين الباشا، لأنه لا يكتفي برسم ما يراه، بل يرسم ما سنراه، هو خلاّق، وهو صانعُ جمال. ولأنه كذلك، وبسبب الرسم الصافي لهذا الجمال، هو رسّامٌ كبير.

لهذا السبب أنا أنحاز الى لوحته التي تنتمي الى الجمال، وهو هنا الرسم الصافي.

بل أنا أنحاز الى هذه اللوحة، للغواية التي لا تني تخلقها في العين من جديد. هي غوايةٌ حواسية، شهوانية، دنيوية، صحيح، لكنها عميقة، جوانية، تجعل العين أشبه ما تكون بحالة سكر وانخطاف وبصبصة خارقة. تماماً كحال الناظر الى معشوقه، يرى ما سيراه فيه، لا فقط ما يراه.

هي في هذا المعنى، غوايةٌ غيرُ خادعة وغير ملفَّقة. لأنها لا تكتفي بالحواس وشهوات الحواس ودنيويتها. بل هي موصولةٌ بفلسفةِ اللذة. لذّة الرنوّ بالعين. وعندما تؤخذ العين بهذه اللذة، فإن مفاعيلَها تسري ليس في الجسمِ وحواسِه فحسب، بل هي تسري في الأنحاءِ كلِّها، حتى ليصيرَ التعاطي تعاطياً وجْدياً ووجودياً، كحال التعاطي بين الناظر والمنظور، بين الهواء والرئتين. والله أعلم.

هذا يدفعني في الرسم الى الحديث عن أحوالِ النفس لا الاكتفاء بأحوال الواقع والرؤية والحقيقة فحسب. فأنْ ترسمَ أيها الرسّام، فهذا يعني أنكَ تُدخِل في اللوحة ما ستراه، لا أن تكتفي بما تراه. هكذا تقترب اللوحة من الماوراء والمابعد. وهو الإضافةُ الموصولةُ بفلسفةِ المطلق في عملية الرسم هذه. وهي نفسُها فلسفةُ الجمال.

أيها السيدات والسادة،

هذا التصور ليس فحسب تأويلاً شخصياً يخضع للانفعال بلوحة الباشا. فهو عمليةُ استدعاءٍ لمعايير الجمالية الفنية في فهم اللوحة.

إنها ميراثُ موهبةٍ بصرية، ويدوية، وخبراتٍ واختبارات، وعلوم، ودراسات، ومقارنات، وتجوالات في الطبيعة والمخيّلة، والذات، والثقافة التلوينية، وقد بنت نفسها، يوماً بعد يوم، حتى وصلت الى ما وصلت اليه من مكانةٍ تمتلك

من المكوّنات البنائية واللونية ما يجعلها قادرةً على النطق بكفاءتيها التشكيلية والدلالية على حد سواء.

فماذا يفعل أمين الباشا بسطحه التشكيلي، وبالفضاء، لكي يكونا على ما هما عليه من متانة وجمال، ومن أين يأتي بسرّ لوحته، كي يكونَ لها ما يكون في الحياة التشكيلية اللبنانية والعربية، كما في النظرات التي تستولي عليها وتجعلها وقفاً بصرياً ووجدانياً كثيرَ التجدد والديمومة؟

أقول إن سرّ هذه اللوحة، يكمن أولاً في إيمانها بالجمال، جمالِ الواقع، والطبيعةِ، والناس، والذات. ويكمن في قدرتها على استخلاصِ لذةِ هذا الجمال.

وأقول أيضاً إن سرّ هذه اللوحة يكمن في عدمِ ادعائِها الحداثي، ليس لأنها غيرُ حديثة، بالعكس، بل لأنها لم تؤخذ بالشعاراتِ الفضفاضة التي راجت في الغرب خلال مراحلَ مختلفة من القرن العشرين، ودعت الى التنكرِ للجمال، وإفسادِ اللذة فيه، وإفراغِ اللوحةِ من مضامينها الحيوية، سطحاً ولوناً وبناءً، والتخفيفِ من غلواءِ وجدانياتِها الموضوعاتية واللونية، نزوعاً نحو سطحٍ يبتغي الاختبارَ والتجريب، باعتبار أن هذين الاختبار والتجريب لا بدّ أن يفضيا الى ما يفتح ثغرةً في السطح التشكيلي المسدود. لكن أمين الباشا، وإن مارس الاختبارَ والتجريب، لم يتنكر للجمال، ولم ينزلق في ما انزلق فيه غيرُه، هنا وفي العالم العربي، او في الغرب، مشدِّداً على ان اللوحةَ التشكيلية لم تصل الى طريق مسدود، وأن ليس في سطحِها وفضائها ما يدعو الى كسرِ الجدارِ المزعوم، الماثل أمامَها وفيها. فهو، آمن بأن الحداثة كامنةٌ في اللوحةِ نفسها، وفي اختبارِها لذاتِها، وفي فتحِ أغوارها، وفي تأنيثها، وتأثيثها، بالأشكال والألوان، التي تمنحها القدرةَ على الاستمرار والتأويل. وقد نجح في ذلك نجاحاً متكاملَ المعنى، فلم تراوح لوحتُه مكانَها، ولم تقع في المجانية. وهذا هو أحدُ أسرارِها الكبرى.

عدمُ المراوحة، ورفضُ المجانية، أفضيا الى مكانٍ ثانٍ، بل الى مكانةٍ ثانية، قوامُها امتزاجُ خبراتِ الماضي بتطلعاتِ الحاضر، وتزاوجِهما الطبيعي والمنهجي، فوقَ سطحٍ تشكيلي لا يتنكر للآباء ولا يقفل البابَ على الحداثة. من هذا المطرح بالذات، يمكن فهمُ أحدِ أسرارِ لوحة الباشا. هو سرٌّ يعرف الإرثَ، ويعرف كيف يجعله حديثاً.

لا يتنكر الباشا للطبيعة، ولا يتنكر للموضوع، ولا يتنكر للواقع. عدم التنكر الثلاثي هذا، جعله يؤمن بأن تطويرَ اللوحة يكمن هنا بالذات. في هذه الطبيعة. في هذا الموضوع. وفي هذا الواقع. ولأنه آمن بهذا الفهم التشكيلي، فقد راح يعمل على منحِ هذه المكوِّنات ما يجعلها قابلةً للعيش في الراهن. وها هنا تكمن الغواية التي انشغلت بها لوحةُ أمين الباشا. حتى ليمكن جعل هذه الكلمة مفتاحاً لا بدّ منه لولوج اللوحة. فلنسمِّ هذه اللوحة: غواية الباشا. وأيّ غواية، وأيّ باشا!

أيها السيدات والسادة،

يأخذ البعض، بعضُ الفنانين والنقّاد والمثقفين، على لوحة الباشا أنها لا تثير أسئلةً إنسانية، ولا تقضّ، ولا تتألم.

بل يأخذون عليه أنه لا يرسم إلاّ الفرح متناسياً الأهوال والمآسي والكوارث. قد يبدو هذا صحيحاً للوهلة الاولى. لكن، لا. فهي تثير سؤالاً جوهرياً واحداً هو سؤالُ الجمال. وهو سؤالٌ إنساني بامتياز. بل هي تثير سؤالاً يتحدى المأساة البشرية المنحدرة الى جحيمها، عبر إيمانه بالفرح. وهو سؤال اللذة مطلقاً. بما فيه من غواية. أعني لذةَ اللوحة كقيمةٍ بصرية بامتياز. وهل يكون بصرٌ بدون عمقِه الإنساني والوجداني؟ وهل تكون لذةٌ بصرية بدون شخصٍ متلذّذ يمثل وراءها، مبصبصاً على هذا الجمال البصري، في الطبيعة، في الناس، في الشارع، راسماً إياه بالخطوط والأشكال والألوان، بل خالقاً إضافاته التي لا يراها في الواقع الأصلي، لكنه يصير يراها، ويجعلنا نصير نراها؟!

وقد تسألونني الآن لماذا أختار لوحة أمين الباشا؟

بسيطة: أنا أختارها لأنها تنتمي الى شيء أسمّيه في الفن التشكيلي الواقعيةَ السحرية. على غرار الواقعيةِ السحرية التي اخترعها في الرواية كتّابُ أميركا اللاتينية.

هي لوحة أجرؤ أن أقول إنها واقعية. لكنها ساحرة.

تظن العين أن اللوحة واضحة، مفهومة، سهلة المتناول. وأنها جميلة. لكنها في الحقيقة أكثر: إنها ساحرة.

الساحرة لأنها تسرق روحَ الناظر اليها. ولأنها تكذِب. تُوهِم. تُسكِر. تُذهِل. تخلُب. تطوِّش. وتدوِّخ.

الساحرة لأنها تسحر فتُوقعنا في تزيين النزق، وتُرينا ما نعتقد أننا نراه فنصير نشعره ونراه.

هي الرؤيةُ نفسها التي تعترينا عندما نقع في سحر الحب.

لهذا السبب، أجزم أن أمين الباشا – مسحوراً بالجمال – لا تستطيع لوحتُهُ أن تتصنّع. يدُهُ غريزة. وسحريتُه الغريزية هي السبّاقة الى اقتناص الجمال ولذته، لأنها سحريةٌ واقعية وغرائبية.

هو يصنع السحرَ من الواقع، وفي الواقع. ويسحر.

وعندما يمارس الرسّامُ السحر، يصير المشهدُ أكثرَ من مشهد، وأكثرَ من لون، لأن العينَ تصيرُ ترى أكثر.

ما هو السحر؟ ما هو الحبّ؟

أهو فقط الجمال؟ الانسجام؟ الكيمياء؟ اللذة؟ الحقيقة؟ الوهم؟ الصدق؟ الذكاء؟ الخبرة؟ التلوين؟ الهندسة؟ البناء؟ التركيب؟ اللعب بالواقع؟ الاختراع؟ ثم الانخطاف والسفر على بساط الجنّ؟

ربما هذا كلّه معاً، وفي آن واحد.

ولماذا أمين الباشا؟ أسأل، وأجيب: لأنه يكره البشاعة. ويتلذذ بعشق لذة الجمال.

وأختم: لأنه ساحر. ولأنه أيضاً، لأنه خصوصاً، مسحور.

كلمة الفنان أمين الباشا

اعتذرت مراراً لِمَن دعاني ليكرّمني متسائلاً عن معنى التكريم لرسام.

العمل الفني الذي هو عمل عمر بكامله، لا يكتمل ولا ينتهي. اللوحة إذا تعبت من الرسام، فاللوحة التي تأتي بعدها، تأتي لتنتقم منها، وهكذا المرسم في هدوئه هو دائم في عراك بين ما يصبو إليه الرسام وبين ما يصل إليه في إنهاء لوحة لا تنتهي، بل تنضم إلى سلسلة الأعمال السابقة. حاملةً الأمل بالوصول إلى الكمال الذي لا يصل إليه الفنان.

الفنان يكون فناناً قبل مولده. هو يولد فناناً دون إرادته. الإنسان لا يقرّر هو نفسه أو غيره أن يكون فناناً أو يصير فناناً. إن درس الفن، فدراسته تجعل منه متذوقاً وليس فناناً.

لست أدري لِمَ أتكلم عن الفن فقط، وقد ابتدأت الكلام عن هذا التكريم. هل هو ضعف مني قبول التكريم الذي خصّتني به الحركة الثقافية في إنطلياس؛ أم هدية منها أتقبّلها شاكراً، هذه ليست أسئلة، بل أن تقديري للقيّمين على هذه الحركة الثقافية يفوق كل شكر وامتنان.

كم أحلم أن يتكرّم الفن في بلادي، وينزاح عنه الرّديء منه، وقد عشعش في هذه الأيام في كل زاوية من زوايا الوطن.

تكلمت عن التكريم، أعتقد أن تكريم الفنان هو تكريم للناس جميعاً. وتكريم الناس يتمثل في نشر الفن وبناء المتاحف والمسارح والفرق الموسيقية عالية المستوى. وقبل أن تُبنى المتاحف والمسارح والفرق الموسيقية، يجب بناء أشخاص ليصيروا مؤهلين لإدارة هذه المعابد الفنية السّامية، التي لا سبيل لذكرها الآن، أما ما يجب عليَّ ذكره هو

شكري لمن أراد تكريمي، راجياً أن أكون أهلاً به، وأهلاً وسهلاً بكل من أتى لمشاركتي بهذا التكريم.

تكريم أعلام الثقافية في لبنان والعالم العربي

تكريم البروفسور أنطوان غصين

كلمة الياس كساب

كلمة الدكتور هنري العَويط

كلمة البروفسور انطوان غصين

كلمة الياس كساب

قد يجوب المرء أقاصي الارض عندما يتعلق الامر بشفاء ، فالانسان جسدا" وروحا" يسعى دوما" ليحافظ عليهما من كل دخيل وطارئ غير مرغوب فيه .

عرف الانسان أهمية العافية فكان للشافي الذي أصبح الطبيب مع تقدم الزمن، مكانة مقدسة عبر العصور ، لقد لمس هذا الطبيب قيمة الانسان أعز مخلوقات الله وعرف سره لذلك اقسم على ان يشفيه من كل مرض ويحميه ويحافظ عليه ويصبح عمله رسالة انسانية بامتياز، بناء عليه دعي الطبيب حكيما" .

ان من اختار ان يدمج نفسه بهذا الحقل انما نذرها للخير واقسم يمينا" يلازمه طول حياته.

مهنة الطب هي من المهن الانسانية والاخلاقية وهي من أشرف المهن التي عرفها التاريخ البشري لذلك يتعين على من ينتمي الى هذه الفئة ان يراعي سلوكيات هذه المهنة وآدابها وان يكون قدوة في مسلكيه العام والخاص ولذلك فان البلدان كافة تسعى ومن خلال تشريعاتها الى وضع أنظمة تحدد مسؤوليات مزاولي مهنة الطب وتنظم العلاقة بينهم وبين المرضى كما تحدد شروط الواجب توافرها لدى من يمارس هذه المهنة ويأتي كل ذلك في اطار المبادئ التي يقررها المجتمع الدولي ، ولعل من أهم هذه المبادئ إعلان جنيف الذي وجب أن نذكر به ونذكر بعض ما جاء فيه :

" أتعهد وأنا أنضم الى سلك مهنة الطب بأن أكرس حياتي لخدمة الانسانية وسأقدم لأساتذتي الاحترام والتقدير الذي يستحقونه وسأمارس مهنتي بما يمليه علي الضمير والشرف وستكون صحة المريض محل اعتباري الأول وسأحافظ على الأسرار التي أؤتمن عليها وسأصون بكل الوسائل المتاحة لي الشرف والتقاليد العريقة لمهنة الطب وسأعامل زملائي باعتبارهم اخوتي. ولن أسمح لاعتبارات الدين والجنسية والعرق والسياسات الحزبية او المركز الاجتماعي ان تتدخل بين أداء واجبي وبين مرضاي وسأحافظ على أبعد حدود الاحترام للحياة الانسانية ولن استعمل معرفتي الطبية، حتى ولو تحت التهديد خلافا" لما تقتضيه الاعراف والقوانين الانسانية انني أقطع على نفسي هذه الوعود بكل رصانة ووقار بمحض ارادتي واقسم بشرفي على ذلك"

وانني اذ قرأت على مسامعكم هذا المقطع فلا بد أنني راء في كلماته وصفا" دقيقا" لاخلاقيات المكرم الليلة وهو البروفسور انطوان غصين ومسيرة حياته.

فلا عجب ان كان قد أطلق على لبنان مستشفى الشرق كون هذا البلد أنجب أنطوان غصين وأمثال انطوان غصين وتلامذة أنطوان غصين ، لهذا فقد قررت الحركة الثقافية–أنطلياس أن يكون هذا المبدع مكرما" على منبرها الليلة واسمه يكلل يوما من أيام هذا المهرجان.

عندما كنت أحضّر لهذا اللقاء، قصدت عيادته في الاشرفية فتوقعت ان أرى تلك العيادة الفخمة وقد زيّنت بالتحف البراقة واللوحات الخلابة القيمة، فاذا بي أرى عيادة" تحفها وتماثيلها جوائز ونجاحات ، حيطانها شهادات جامعية وشهادات تقدير وعضوية شرف لجمعيات ومؤتمرات في لبنان وخارجه، وكتبا علمية وأدبية متعددة ، فأدركت حينها ان العظمة لم تتجل الا بهذا الطبيب الجراح.

من يتكلم على سيرة البروفسور غصين ويقدمه لنا ، هو من عرفه : رب عائلة صديقا"، طبيبيا"، استاذا" باحثا" عميدا"، انه صديق الحركة الثقافية – أنطلياس الدكتور هنري عويط ،أبن بلدة بزيزا قضاء الكورة لبنان الشمالي،

– الحائز على الاجازة التعليمية في الفلسفة ثم الاجازة التعليمية والماجستير والدكتوراه عام1986 بدرجة الامتياز في اللغة العربية وآدابها من جامعة القدّيس يوسف.

- الأمينا العام لجامعة القدّيس يوسف منذ 1982 ومدير دوائرها الاكاديمية منذ 1990.

- مدير المعهد الجامعي لاعداد المعلمين والمديرين منذ عام 1997 الى عام 2005

- عميد كلية العلوم التربوية منذ عام 2001 الى عام 2004

- أستاذ مادة الادب العربي الحديث وأستاذ مادة الترجمة في معهد الآداب الشرقية في جامعة القدّيس يوسف.

- عضو في مجموعة من اللجان والهيئات التربوية والفكرية .

- رئيس التجمع الدولي للامناء العامين في الجامعات الفرنكوفونية منذ عام 1997 الى عام 2001 ، مقرر عام لمجلس اتحاد الجامعات العربية منذ 2002

- شارك في عدد كبير من الندوات والمؤتمرات الوطنية والعربية والدولية وله فيها مجموعة من المداخلات والالمحاضرات

- له مجموعة من المقالات والدراسات باللغتين العربية والفرنسية في النقد الادبي والترجمة والعلوم التربوية فضلا عن مجموعة من الترجمات ،

- شارك في وضع العديد من الكتب .

كلمة الدكتور هنري العَويط

أنطوان غصَين جرّاحاً وإنساناً

اختارَتِ الأديبةُ نينا جيدادجيان للكتابِ الذي دوَّنَت فيه سيرَةَ زوجِها البروفسور يرفنت، عنواناً كثيفَ الدلالَةِ في إيجازِهِ : « The Surgeon and the Man »، " الجرّاح والإنسان". فَدَعوني أُصارِحُكم بأنّي لم أجِدْ خيراً من هذا العنوان أستهِلُّ به شَهادتي في البروفسور أنطوان غصَين، بل أبني عليه مداخلَتي كلَّها. ومردُّ ذلك إلى أنّ عبارَتَي هذا العنوان – البرنامج، تكادان تختصران فصولَ حياتِه بأكمَلِها. فتَحْتَ قُطبِهِ الأوّل، يتألّقُ سجلُّهُ المِهْنيُّ الحافِلُ بما يَربو على خمسٍ وخَمسينَ ألفَ عمليّةٍ جراحيّة، ويتوهَّجُ تحْتَ قُطبِهِ الثاني، رصيدُه الإنسانيُّ الزاخِرُ بالعطاءات، وليس أقلَّها شأناً إجراؤهُ عشرينَ ألفاً من هذه العمليّات بصورةٍ مجّانيّة. ولكنّ هذه الأرقام، على بلاغتِها، لا تختزلُ سيرةَ أنطوان غصَين ومسيرَتَهُ، فاسمحوا لي أنْ أستعرِضَ أمامَكم بعضَ أبرزِ محطّاتِها، وأتأمّلَ معكم في عددٍ من وجوهِها المُضيئة.

* * *

أوّلاً : تجربة الجِراحَة الريفيّة في البقاع

عُرِفَ أنطوان غصين بنَجابتِه ونجاحِه الباهر في دروسِهِ التي بدأها في زحله وأكملَ مرحلتَها الثانويّة في مدرسةِ الحِكمة في بيروت. وتُثْبِتُ محفوظاتُ كليّةِ الطبِّ في جامعةِ القدّيس يوسُف أنّه كان من طَلَبَتِها المُبرّزين، فمنحَته، فضلاً عن شهادةِ دكتوراه الدولةِ الفرنسيّةِ في الطبّ، أربعَ ميداليّاتٍ في اختصاصاتِ الكيمياءِ الحَيويّة، وعِلمِ الأنسجة، وعِلم وظائفِ الأعضاء، وعِلمِ الأجِنَّة.

وكانَ في مَقدورِهِ، عندما أنهى في عام 1953، مرحلةَ تخصُّصِه، أنْ يَجِدَ في بيروت ما يتناسَبُ مع مؤهّلاتِه وطموحاتِه. لكنَّه لم يستسلِمْ إلى إغراءاتِ ممارسةِ مِهنَتِهِ في العاصمة، وما تَعِدُ به المتخَرِّجَ المتفوِّق من مالٍ وشهرةٍ ومناصِب، بل آثَرَ أنْ يستقرَّ في زحله، ويعمَلَ في وَسَطِ بيئةٍ اجتماعيّةٍ متواضعة، ومحدودةِ المَوارِد، وفي صَميمِ منطقةِ البِقاع التي كانَت تُعاني عهدَ ذاكَ الحِرمانَ الشديد على صعيدِ الخدْماتِ الطبيّة والاستشفائيّة. ولَم يَكنِ القرارُ الذي اتّخذهُ وليدَ عاطفةِ الحُبِّ التي تشدُّه إلى الأرضِ التي أبصَرَ فيها النورَ فحسب، بل كانَ خِياراً واعياً ومقصوداً، نابعاً من مفهومِهِ لرسالةِ الطبِّ، ومن تصوُّرِهِ لدورِهِ هو كطَبيب.

فعلى غِرارِ مثالِهِ الأعلى، الطبيبِ الإنسانيّ الكبير، ألبير شويتزر، الذي ترك ستراسبور وموقعَه المتقدِّمَ فيها، وكرّس حياتَه للقارّةِ الأفريقيّة الفقيرة، صمَّمَ أنطوان غصين على خدمةِ أهلِ الريفِ المتألّمينَ والمُعوزين، فمارَسَ على امتدادِ عشرينَ سنةً ونَيّف، مِهْنَةَ الجِراحَة في مستشفى زحله الحكوميّ، وفي مستشفى تلّ شيحا، وكانَا في خمسيناتِ القَرنِ الماضي المستشفَيَين اليَتيمَين في البِقاعِ بأسرِهِ، كما كان هو، لسنواتٍ طِوال، الجرّاحَ الوَحيد في هذه المِنطقةِ المترامية الأطراف.

وقد أكسبَتْهُ هذه التجربةُ الطويلةُ، خِبرةً ثريّة، فأتاحَتْ له أنْ يُجريَ ثلاثينَ ألفَ عمليّةٍ جراحيّة، وأنْ يُعالِجَ حالاتٍ قلَّما يتيسَّرُ للأطبّاءِ العامِلين في المُدُنِ أنْ يُعاينوها، ومنها لَسْعاتُ الأفاعي في السهل، وطَعَناتُ الخَناجِرِ أو رصاصُ البنادقِ، الشائعَةُ في مِنطقةٍ كانَت تَسودُها شَريعَةُ الثأر، فضلاً عنِ الجروحِ والكسورِ التي يتسبَّبُ بها انقلابُ الجرّاراتِ الزراعيّة. وتوصَّلَ، في هذا الإطارِ الجغرافيِّ والديموغرافيّ الخاصّ، إلى اكتشافِ مَرَضِ الجمرةِ الخبيثةِ المعويّة،(Le charbon intestinal / intestinal Anthrax) الذي كان يَفتكُ بالمئاتِ من الرُعاةِ والقَرويّين، في قضاء بعلبكّ – الهِرمل تحديداً، مسجِّلاً بذلك واحداً من أهمِّ إنجازاتِه على صعيدِ الأبحاثِ العلميّة.

وشَكَّلَت هذه المرحلةُ البِقاعيّة، التي يَحلو له أنْ يُسَمّيها " اختبار الجِراحة الريفيّة "، تجربةً مميَّزَة بل فَريدَة، طَبعَتْ شخصيَّته بميسَمِها، ورسَمَت التوجّهاتِ الكُبرى التي قادَتْ مسيرَته المديدَة، في جميعِ محطّاتِها. فعلَّمَتْه، في جملةِ ما تمرَّسَ به، الواقعيّةَ، والاتّزان، وزوَّدَتْهُ طاقةً واسعةً على الإصغاءِ إلى المَرضى والتماهي معهم، وحبِّهِم، والتفاني في خِدمتهِم، وما يُشبهُ العِنادَ في بَذلِ المستَطاع، بل ما يتجاوز أحياناً نِطاقَه، من أجلِ رَدِّ العافيةِ إليهم، وشفائهِم.

ولئن لم يوظِّفْ أنطوان غصَين، شأنَ الكثيرينَ غيرِه، خِدْماتِه الطبيّة، في تغذيةِ رصيدِه السياسيّ، وبناءِ شعبيَّتِه الانتخابيّة، فلقد حَفِظَ له أبناءُ زحله والبقاع هذه الخِدْمات، وهم أهلُ وفاء، وبادلوه الحبَّ الكَبير، وأحاطوه بهالَةٍ لافتةٍ من التقديرِ والاحترام، ومحضوه ثقتَهُم العمياء، واتّخذه الآلافُ منهم، عهدَ إقامته بين ظهرانَيْهم، مَرجِعَهُم الطبيَّ من دونِ منازعٍ أو شَريك، ثمّ انتدبوه سَفيراً لَهم في بيروت، مفوِّضينَ إليه رعايةَ شؤونِهِم وشجونِهِم الصحيّةِ كلِّها.

وعَرَفَ أنطوان غصَين أنْ يأتمنَ على أسرارِ مَرضاه، ويعهَدَ بتَدبيرِ عيادتِه البيروتيّة، إلى ماري–روز الحويّك، سَليلَةِ البَيتِ العريقِ الذي ندينُ له بنشوءِ دولَةِ لبنانَ الكَبير، فحظيَ كلُّ مَن قصدَه لمعاينةٍ أو لاستشارَة، وبخاصَّةٍ الوافدونَ من البِقاع، بحسنِ استقبالِها وحرارَتِه.

والحَقُّ يُقال إنَّ العَلاقَةَ التي أقامَها أبناءُ زحله والبقاع، بمَرجِعِهِم الطبيِّ شبهِ الوَحيدِ في بيروت، أحلَّتْهُ عندَهم في مرتَبةِ المستشارِ النَصوح، والمرشِدِ الأعلى، فلا أراني أُغالي إنْ أنا زَعَمتُ أنّ لَقَبَ "الحكيم"، بكلِّ ما لهذهِ الكلمةِ من معانٍ ودلالاتٍ وأبعاد، إنّما صيغَ خِصّيصاً لِيُطلَقَ على أمثالِ أنطوان غصين.

فكيف لا نعترفُ بأنّه ينتَمي إلى رعيلِ الروّادِ الذين تنبَّهوا إلى أخطارِ استئثارِ العاصمةِ بيروت بالكفاءاتِ الطبيّة، والمؤسّساتِ الاستشفائيّة، وأدركوا، قبل تقاريرِ بَعثةِ ايرفد، ودراساتِ الأب لوبره، ما تعانيه الأريافُ، وفي طَليعتها منطقةُ البِقاع، من إهمالٍ وتخلّفٍ وحِرمان، وأنّ لها حاجاتٍ حقيقيّةً وماسّة، وحقوقاً مَشروعَة، فبادَروا، قبل إصلاحاتِ العَهدِ الشهابيّ، إلى تحقيقِ الإنماءِ المتوازِن في هذا المجال؟!

وكيف لا يَحملنا تكريمُ البروفسور غصَين اليوم على مناشدةِ نقابتَي الأطبّاء، ووزارتَي الصحّةِ والشؤونِ الاجتماعيّة، والمسؤولينَ في كليّاتِ الطبّ، العملَ الجادَّ على استصدارِ قانونٍ ينشئُ الخدمةَ الطبيّةَ الإلزاميّةَ في الأرياف، ويشترطُ في كلِّ متخرّجٍ جديد تأديتَها قبلَ منحِه الإذنَ بممارسةِ المهنةِ في المدن ؟!

وكيفَ لا يذكّرنا تكريمُه، بالمبادئ الأساسيّةِ التي استوحاها، وعَمِلَ بمقتضياتِها، والتي غالباً ما ننساها أو نتناساها، وفي مُقَدِّمِها أنّ خِدمةَ الفقراء، وأنَّ الخِدمةَ في القرى والدساكرِ المتواضعَة، والمناطقِ النائية، ليسَت التزاماً مِهْنيّاً فحَسب، بل هي أيضاً واجبٌ وطنيّ، وشِرعةٌ أخلاقيّةٌ وإنسانيّة.

ثانياً : التألّق الأكاديميّ والتميّز المِهْنيّ

وبعدَ تجربةِ الجراحةِ الريفيّة التي عاشَها في البِقاع، عيّنَتْ كليّةُ الطبِّ في جامعةِ القدّيس يوسُف خرّيجَها اللامع، فورَ عودَتِه إلى بيروت في عام 1973، أستاذاً للجِراحةِ فيها، ثمّ رقّتْهُ إلى رتبة بروفسور، وانتخبَتْهُ في عام 1986 عميداً لها. وإليه يعودُ الفَضلُ، مع فريقِ معاونيه، في إنشاءِ برامجِ الاختصاصاتِ الطبّية، وفي العملِ على تطويرِها ورَفعِ مستوى التنشئةِ وضَمانِ جودتها، فمكّنَ أفواجاً من الأطبّاءِ المتفوّقين، يربو عددُهُم على الألفَين، من أنْ يبدأوا في لبنان مرحلةَ تخصُّصِهِم، وينجحوا في المُباريات الأوروبيّةِ والأميركيّةِ التي أهّلَتهُم لمتابعةِ تخصُّصِهِم في أرقى المستشفياتِ في الخارِج.

ولم يَقنَع البروفسور غصين بالعلومِ التي حصلَّها، وبالخِبرةِ التي اكتنَزَها، فأخذ منذ مطلَع الستّينات بالمبدأ الذي دَعَت منظَّمةُ اليونسكو أخيراً إلى تطبيقِه، معتبراً أنَّ الشهادةَ هي بدايةُ طريقِ العِلمِ لا خاتمتُهُ، وأنَّ التعلُّمَ مدى الحياة ليس شرطاً لا غنىً عنه للنجاحِ في ممارسةِ مهنةِ الطبِّ فحسب، بل هو أيضاً واجبٌ أخلاقيّ على الطبيبِ أنْ يلتزمَ مقتضياتِه. فلَم يتخلَّفْ عنِ المشاركةِ في المؤتمراتِ الوطنيّةِ والإقليميّةِ والدوليّةِ في حقلِ اختصاصِه. وحَمَلَهُ تعطُّشُهُ إلى المعرفة على ارتيادِ مراكزِ العِلمِ المشهورة، في باريس، ومرسيليا، وبوردو، ومونبلييه، وتولوز، وليل، وبروكسيل، وفي بوسطن، ونيويورك، وميامي، وشيكاغو، وأتلانتا، ونيو أورليان، وسان فرنسيسكو، ليتابعَ فيها بوَتيرةٍ شبهِ سنويّة، دوراتٍ دراسيّة كانَت تمتدُّ أسابيعَ وأشهراً، وفَّرَت له التنشئةَ المستمرَّةَ التي سَعى في طَلَبِها، وأتاحَت له الاطّلاعَ الدوريَّ والمتواصلِ على أحدثِ ما يستجدُّ في عالَمِ الطبّ، إنْ على صَعيدِ المعارفِ والأبحاثِ المتطوِّرة، أو على صعيدِ التقنيّاتِ المبتَكَرَةِ المُعتَمَدَةِ في العِلاج والعمليّاتِ الجراحيّة، فاغتنى بها، وأفادَ بها طُلّابَهُ، وأمَّنَ بفَضلِها خدمةَ مرضاه على أفضلِ وَجه.

ولم يقتصرْ ما حظي به من تقدير، على كليّةِ الطبِّ في جامعةِ القدّيس يوسُف. فقد تَمَّ اختيارُهُ عضواً في (Arab Board)، المجلسِ العربيِّ المسؤولِ عن تدريبِ الجرّاحين، من متخرّجي دولِ العالَمِ العربيّ، والمُشرِف على امتحانِهِم. وأهّلَهُ نشاطُهُ الأكاديميُّ البارِز، وأبحاثُه العلميّةُ الرَصينَة، وخِبرَتُهُ الجراحيَّةُ الواسعة، للانتسابِ إلى هيئاتٍ علميّةٍ مَرموقَة، فأصبحَ عضواً في الجمعيّةِ الدوليّةِ للجراحة، منذ عام 1959، ومندوبَها الوطنيّ، وعضواً في هيئتِها الدوليّة، منذ عام 1980؛ ونالَ عضويّةَ الجمعيّةِ الفرنسيّةِ للجراحَة، منذ عام 1959، وعضويّةَ الجمعيّةِ الأميركيّةِ للجراحة منذ عام 1971، ثمَّ انتُخِبَ رئيساً لفرعِها اللبنانيّ على مدى سنوات ؛ وأصبحَ عضواً مشاركاً في أكاديميّةِ باريس للجراحة، منذ عام 1986 ؛ وكانَ رئيساً للجمعيّةِ اللبنانيّةِ للجراحَةِ العامّة، على امتدادِ عَقدَين ونيِّف من السنوات، منذ عام 1974 إلى عام 1996، قبل أن يصبحَ رئيسَها الفخريّ مدى الحياة.

هذه الكفاءةُ المَشهودةُ في المجالِ الأكاديميّ، رَفَدَتها كفاءتُهُ المميَّزَةُ في الحقلِ المِهْنيّ. ففضلاً عن سِجلِّهِ الحافلِ في مستشفياتِ زحله والبقاع، ورئاستِه قسمَ الجراحَةِ في مستشفى تلّ شيحا منذ عام 1953 إلى عام 1973، رأَسَ في مستشفى أوتيل ديو فرعَ الجراحَة منذ عام 1976 إلى حين إلغائِه في عام 1983، ورأَسَ فيه أيضاً قسمَ الجراحةِ العامّةِ منذ عام 1974 إلى عام 1991، وقسمَ الطوارئ منذ عام 1983 إلى عام 1991، ولا يزال إلى اليوم يُمارِس الجراحةَ في مستشفياتِ أوتيل ديو، ورزق، والخوري، وتلّ شيحا. وكانَت له، بعد تجربةِ الجراحةِ الريفيّةِ في البقاع، تجربةٌ أخرى مؤثِّرَة، شاركَهُ فيها مجموعةٌ من زملائِه في مستشفى أوتيل ديو، هي تجربةُ الجِراحَةِ الحربيّةِ التي مارسوها في سنواتِ الحَربِ التي عَصَفَتْ بلبنان، واضطرّوا خلالها، تحتَ وابِلِ القَصف، في ظروفٍ أمنيّةٍ بالغةِ الخطورَة، وبيئةٍ طبيّةٍ كادَت أنْ تنعدِمَ فيها أبسطُ مقوّماتِ الجِراحَةِ الناجحة، إلى استقبالِ آلافِ الجَرحى والمصابين، ومعالجتِهم، وتحقيقِ مآثرَ طبيّة تَكاد تُعَدُّ في بابِ المعجزات.

ولم يصرِفْهُ انشغالُه بمهامِّهِ التعليميّةِ والإداريّة، ونَشاطُه الطبّيُّ والجراحيُّ الكثيف، عن اهتمامِه الخاصِّ والمتواصِلِ بالبَحثِ العلميّ والتأليف. ففضلاً عَن محاضراتِه التي فاقَت المئة، ومداخلاتِه التي لا تُحصى في المؤتمرات، ومساهماتِه بفصولٍ في عددٍ من الكتُب، ومنها Surgery for all، "الجراحَة للجميع"، وهو كتابٌ عن أحوالِ الجراحَة في العالَمِ الثالِث، نَشَرَ باللغاتِ الثلاث التي أتقَنَها، العربيّةِ والفرنسيّةِ والإنكليزيّة، أربَعين مقالَة، في مجلاّتٍ عالميَّةٍ مَعروفَة، منها : Les Mémoires de l'Académie de chirurgie de Paris ; les Bulletins de la Société internationale de chirurgie ; Diseases of the colon and rectum ; Archives of Surgerey ; New England Journal of Medicine.

حَسبي دليلاً آخرَ على كفاءةِ البروفسور غصين، أنّه حَقَّقَ رقماً قياسيّاً مذهلاً في عددِ العمليّات الجراحيّةِ التي أجراها، وقد أربَت على الخَمسِ والخَمسينَ ألفاً، أكسبتهُ الخِبرةَ الأغنى في هذا المجال، وشهرةً عريضة، وحَسبي أخيراً إجماعُ ذَوي الاختصاص على الإشادةِ بإنجازاتِه وبتميّزِه، ومنحُهُ في عام 1999 درعَ اليدِ الذهبيّة (Le trophée de la Main d'or)، وهو أوّلُ جرّاحٍ ينالُها في لبنان.

ثالثاً : المزايا الأخلاقيّة وأنسَنَة مِهنَة الطبّ

لَن يتَّسعَ ليَ المجالُ لأُحدِّثَكُم عن نشاطاتِ البروفسور غصَين النقابيَّة والاجتماعيّة، وأوسمَتِه السَبعة، وثقافتِه العَميقَة والغنيّة، وعن تذوّقِه الأدب، وعِشقِه الموسيقى، ولا عن هواياتِه الرياضيّة، أو عن صَبرِه الجَميلِ على المكارِهِ في معاناتِه العائليّة الموجِعَة. ولكنّي سأتناولُ بشيءٍ من الإسهابِ مزاياهُ الأخلاقيّةَ والإنسانيّة. فإنَّ مَن قُدِّرَ لَهم، من مواقعهمِ المختلفةِ كمَرضى، أو طلاّبِ طبّ، أو زملاء، أو مسؤولين جامعيّين، أنْ يتعرّفوا إلى البروفسور غصَين ويرافقوه، يُجمِعونَ على التنويهِ بما يتحلّى به على الصعيدَين الأخلاقيّ والإنسانيّ، من خصالٍ وشمائلَ ومزايا، هي موضعُ احترامٍ وتقدير، بل هي في معظمِ الأحيان مدخلٌ إلى علاقةِ صداقةٍ ومودَّة.

أ. علاقتُهُ بزملائه

ففضلاً عن تهذيبه الجَمّ، ودماثتِه الآسرَة، ومعشرِه الأنيس، يُقيمُ أنطوان غصَين على طهارةِ الناطقَين بمكنوناتِ الإنسان، عفَّةِ شفتَيه ونقاوةِ قلبه. فلَم يُجرِ على لسانِه كلمةَ سوء، أو وشوشاتِ نميمة، أو فحيحَ وشاية ؛ ولم ينبِض فؤادُهُ بسوى الحبِّ، والحدبِ، والتعاطفِ، والترفّعِ عن الصغائرِ والدنايا.

ويؤثَرُ عنه أنَّه خَصَّ معلّميه بما يَدعو إليه قَسَمُ أبقراط من إكرامٍ وإجلالٍ وعُرفانِ جميل ؛ ودأب على الإقرارِ بفضلِ مَن سبقه في المناصبِ الأكاديميّةِ الرفيعةِ التي تبوّأها، استاذاً وعميداً، وفي الأقسامِ والدوائرِ الطبيّةِ التي رأَسَها. وفي بلدٍ يسعى فيه الكثيرون إلى إثباتِ مواقعهم عن طريق إلغاءِ الآخَرين، أو بناءِ شهرتِهم على حُطامِ مَن شهَّروا بهم أو جَرَّحوا بسمعتِهم، حَرِص البروفسور غصَين على المشاركَةِ في تكريمِ زملائه، والإشادةِ بموقعهم، والاحتفاءِ بعطاءاتهم، بنُبلٍ لا يصدر إلاّ عن الكبار. ولا يسعُك، وأنتَ تقرأ شَهاداتِه في كوكبةٍ من كِبارِ أطبّائنا : إميل جعجع، أو أنيس مخلوف، أو يرفنت جيدادجيان، أو نجيب طالب، أو بشير سعاده، إلاّ أن تصدِّقَ مَن قال : " إنّ الإناءَ يَنضَح بما فيه"، وكُلُّ ما في قلبِ أنطوان الغصَين وفكرِه، خيرٌ وحَقٌّ وجمال. بل لا يسعكَ إلاّ أن تَرى في هذه الشَهادات، مرايا تنعكس على صفحتِها شخصيّتُهُ، لأنّه سكبَ فيها عُصارةَ تجاربه، وحمّلَها مفهومَهُ لرسالةِ الطبّ، وتصوّرَهُ للقِيَم التي ينبغي للطَبيب أن يستوحيَها، وهي الرسالةُ التي نَذَرَ نفسَهُ بكليّتِها وكرَّسَ حياتَهُ كلَّها لها، وهي القِيَمُ التي آمَنَ بها، وجسّدها، فَغَدَت شَهاداتُهُ تلك إلى الاعترافاتِ وإلى السيرةِ الذاتيّةِ أقربَ ما تكون.

ب. علاقتُهُ بالمَرضى

هذا النُبلُ في علاقتِه بزملائه، لا يُعادلُهُ سوى الحَدبِ الذي رَعى به مَرضاه. غنيٌّ عن البيان أنّ أوَّلَ ما يتطلَّبهُ المريضُ وذووه من الطبيب هو امتلاكُه الكفاءةَ العاليةَ في حقلِ اختصاصه، وتمتُّعهُ بأعلى درجاتِ المهارةِ في ممارسةِ مِهْنتِه، أي أنْ يكونَ التشخيصُ الذي يَقومُ به دقيقاً، والعِلاجُ الذي يَصِفُهُ شافياً، وأنْ تتكلّلَ الجِراحةُ التي يُجريها بالنجاح.

ولكنَّ الصحيحَ أيضاً أنّ المريضَ وأهلَه يحتاجون، فضلاً عن ذلك، إلى طبيبٍ يتفهَّمُ ما ينتابُهم من مشاعرِ الخوفِ التي تستبدُّ بكلِّ مَن اضْطُرَّ إلى زيارةِ عيادة، أو دخولِ مستشفى، هذا العالمِ المثيرِ للقلَق. وهم يحتاجون إلى طبيبٍ يُراعي أحوالَهم النفسيّةَ المضطربة، ويأخذُ همومَهم على مَحمَلِ الجدِّ، ويشرحُ لهم بتأنٍّ الجوانبَ المختلفة للوضعِ الصحّي، ومراحلَ العِلاج، والنتائجَ المتوقَّعَةَ أو المَرجوَّة، ويُعنى بتشديدِ عزائمهم، ورَفعِ معنويّاتِهم.

وأنطوان غصين من طينةِ الأطبّاءِ الذين مارسوا الطبَّ في بُعدَيه المتكاملَين هذين، بُعدِه التقْنيِّ كمهنة، وبُعدِه الإنسانيِّ كرسالة، وكان مُجَلّياً على هذَين المستويَين. ولعلَّ خيرَ ما يُعَبِّرُ تعبيراً أميناً عَن مفهومِه لِدَورِ الطَبيب، الشعارُ الثلاثيُّ (" triple A") الأحَبُّ إلى قلبِه، والذي لَطالما ردَّدَه، لأنّه يختصر في نَظَرِه المزايا التي ينبغي لكلِّ طبيبٍ أنْ يتحلّى بها، وهي : Ability, Amability, availability، أي : الكفاءةُ، والتعاطُف، والجهوزيّة.

لن أُكرِّرَ حديثي عن كفاءتِه. أمّا تَعاطُفُه مَع المرضى، وحضورُه إلى جانبهِم، وتفرُّغه لَهم، فهي مَضرَبُ مَثَل.

وقد استأثَرَت مسألةُ التواصلِ مع المريضِ وذَويه باهتمامِه الشديد، فكَرَّسَ لها دراسةً موثَّقَة بعنوان : l'information médicale »"" الإعلامُ الطبّيّ، تتّسِمُ بالرصانَةِ والعمق، تناولَ فيها هذا الموضوعَ من جوانبِه كافَّةً، وهي تُعَدُّ عن حَقّ وثيقَةً مرجعيَّة، سيجدُ فيها جميعُ المعنيّينَ بتنشئةِ الأطبّاء، المبادئَ الأساسيّةَ التي يَحسنُ بكلِّ طبيبٍ أنْ يسترشِدَ بها في تعاملِه مع المَرضى وذَويهِم.

ولكنَّ مساهمةَ البروفسور غصين لم تقتصرْ على الجانبِ النظريّ فحَسب، على أهميّتِه الكبيرة وفائدتِه الجليلة، بل تجسَّدَت أيضاً في ممارستِه الفعليّة. ويمكننا الجزمُ بأنَّه وُفِّقَ في أنسَنَةِ مِهْنَةِ الطبِّ، من خلالِ أسلوبِه الفذِّ في تعرُّفِ أحوالِ كلِّ مريضٍ من مَرضاه، ودراسةِ بيئَتِه العائليّة، وأوضاعِه النفسيّةِ والاجتماعيّة، و من خلالِ مرافقتِه، قبل خضوعِه للعمليّةِ الجراحيّة، والتزامِه بزيارتِه باستمرارٍ طَوالَ مدّةِ إقامتِه في المستشفى، ورحابةِ صدرِه في الإجابةِ عن أسئلتِه واستفساراتِ ذَويه.

وأنطوان غصَين صاحبُ مدرسةٍ في فَنِّ التعاطي مع المرضى، وقد رأى فيه حقّاً للمريضِ على طبيبِه، بل جُزءاً مُكمِّلاً للعلاج، ومقوِّماً من مقوِّماتِه الأساسيّة. فالمريضُ عندَهُ، ليسَ رَقماً أو زَبوناً، بل هو إنسانٌ يتألَّم. وتَشعُرُ وأنتَ في عيادَةِ هذا الطبيب، أو بين يَدَيْه، بأنَّكَ لستَ أمامَ جرّاحٍ نِطاسيٍّ بارعٍ فَحسْب، بل في حضرَةِ إنسانٍ كبير. ولا إخالُني أبالِغُ إن اقترَحتُ أنْ يُمنَحَ، بعدَ اليدِ الذهبيّة، جائزَةَ القَلبِ الذهَبيّ.

ج. *العلاقة المميَّزَة بين الأستاذ وطلاّبه*

وأقامَ البروفسور غصَين عَلاقةً مميَّزةً بطلاّبه. كثيرةٌ هي المعاييرُ التي تؤخَذ في الاعتبار عند تقويمِ النشاطِ التعليميّ الذي يُمارسه أحدُ الأساتذة، ومن بينها سِعةُ اطّلاعِه، وحِرصُه على تنويعِ مصادرِ معلوماتِه وتجديدِها، وامتلاكُه

المادّةَ التي يقوم بتدريسها، وحسنُ استعمالهِ طرائقَ التدريسِ الملائمة، واهتمامُهُ بالبحثِ العلميّ، ونزاهتُهُ الفكريّة، وتوخّيه العدلَ في العلامات التي يضعها، وسعيُه إلى أن يجعلَ من الطالبِ محورَ العمليّةِ التربويّة، باستبداله أساليبَ التلقينِ التقليديّة بطرائقِ التعلّمِ الناشطة. ولا شكّ في أنّ البروفسور غصين، بشَهادةِ زملائه، والمسؤولينَ في كليّةِ الطبِّ في جامعةِ القدّيس يوسف، وفي مستشفاها الجامعيّ أوتيل ديو، وبشَهادةِ أفواجِ الأطبّاءِ الذين تتلمذوا عليه في قاعاتِ الصفوف، وتدرّبوا على يديه في غرفِ العمليّاتِ وقربَ أسرّةِ المرضى، قد تحلّى بهذه الصفاتِ كلِّها، واستحقّ أن يُعَدَّ، بفضلِ كفاءاتِه التربويّةِ العالية، ومناقبيّتِه اللافتة، عَلَماً من أعلام أساتذةِ الطبِّ في منطقتِنا.

ولكنّه اشتهر أيضاً بطريقتِه المميَّزَة في تعاطيه مع الأطبّاءِ المتمرّنينَ والمقيمين. غالباً ما يأخذُ هؤلاء على مَن يتولّى الإشرافَ على تَخصُّصهم في المستشفيات، انشغالَه بمستلزماتِ مهنتِه، وحرصَه على تعزيزِ موقعِهِ داخلَ الجسم الطبّيّ، على حسابِ اهتمامِهِ الفعليِّ والجادّ بتنشئتهم. أمّا البروفسور غصَين فينتَمي إلى طبقةِ أساتذةِ الطبِّ الكبار الذين يؤمنون بأنَّ مسؤوليّتَهم عن إعداد أطبّاءِ المستقبَل لا تَقِلُّ أهميّةً عن مسؤوليّتِهم في العنايةِ بالمرضى، إذ يعتبرون أنّهم، كأطبّاء، مؤتَمَنونَ على صحّةِ مرضاهُم وسلامتِهم، وأنّهم، كأساتذة، مَعنيّونَ بتسليمِ وديعةِ العِلمِ، ومِشعلِ الرسالةِ، إلى تلامذتِهم.

لم يحتكر أنطوان غصين يوماً المواهبَ الاستثنائيّةَ التي خُصَّ بها ذكاؤه الحادّ، وعقلُهُ النَيّر، وبصيرتُه الثاقبة، ولم يستأثر يوماً بالوزْناتِ الغزيرةِ التي تجمَّعَت في مِبضَعِه وأصابعِ يدَيه، ولم يبخُلِ البتَّةَ برصيدِهِ الكبيرِ من الانجازاتِ العلميّةِ والطبيّةِ المتألّقةِ التي زخرَت بها مسيرتُه الحافلةُ والمديدة. فلقد كان رائدُه وهمُّه على الدوام، بل شغَفُه، تنميةَ معارفِ طلاّبِه وطاقاتِهم وشخصيّتِهم، بإشراكهم في ما حصّله من علوم، وما اكتنزَه من خِبراتٍ راكمها من آلافِ المعايناتِ التي أجراها، والحالاتِ التي عالَجها، والعمليّاتِ الجراحيّةِ التي قامَ بها. ولأجل ذلك، فتح خزائنَه الغنيّةَ على مصراعَيها، ليغرفَ منها طلاّبُ العلم، وارتضى أن يكونَ الجسرَ الذي يعبرون عليه إلى مناهلِ المعرفةِ الصافيةِ والمتدفّقة. ويكفيه فخراً أنّ خيرةَ مَن يتولّونَ إدارةَ أقسامِ الطبِّ العامّ والجراحةِ في مستشفياتِ هذا البلدِ الرئيسيّة، هم الأطبّاءُ الذين أسعفَهم الحظُّ بالتتلمذِ على يديهِ، والتدرّبِ في كنَفِه، وما زالوا حتّى اليوم يعتبرونَه المعلِّمَ والمَرجِعَ والقُدوَةَ والمِثالَ الأعلى.

فما أحوجَنا اليومَ إلى هذا النَموذَجِ من الأساتذةِ الذينَ يأخذونَ بيَد طلاّبِهم، ويبذلونَ وقتَهم وجهدَهم في رعايةِ خطواتِهم المتدرّجةِ في مسالكِ العلم، ويكونون لهم الأخَ الكبير، والرفيقَ المرشدَ والأمين، فيفرَحونَ بهم حينَ يُصبحونَ أقراناً لهم ونُظَراء، في العَلاقةِ الندّيةِ التي لا تقومُ إلاّ بينَ الزملاء. ويكتملُ فرَحُهم عندما يتفوَّقونَ عَلَيهم. أَولَيسَ البروفسور غصَين هو صاحبُ القَولِ المأثور : « nul maître ne mérite son nom que si, de son vivant, il est dépassé par ses élèves »، " ما مِن معلِّمٍ يَستحقُّ لقَبَه هذا ما لَم يَتفوَّق عليه تلامذَتُهُ، وهو بَعدُ على قيد الحياة ".

رابعاً : الخشوع أمامَ الحياة

وآمَن أنطوان غصَين بأنّ الحياةَ هي العطيَّةُ الأسمى، والنعمةُ الأبهى. ولاحظَ أنّ شعورَ مُعظَمِ الناسِ بالرَهبةِ أمام المَوت، غالباً ما يزرَعُ اليأسَ في النفوس، ويُحبِطُ الهِمَم، ويحملُ على الاستسلامِ لآجالِه المحتومة. ولأنّه من أنصارِ مدرسةِ الأمَل، دعا إلى استبدالِ هذا الشعورِ بالرَهبة، بعاطفةِ الخشوعِ أمامَ قُدسيَّةِ الحياةِ وعظمَتِها، لأنّ من شأنها أن تُحفِّزَ على العملِ لتحسينِ ظروفِها، وإطالةِ أمَدِها، وصونِها من الأخطارِ التي تتهدَّدُها، وتعزيزِ فُرَصِ المحافظةِ عليها أو إنقاذِها. ورأى في هذا السياقِ أنَّ عمليّاتِ زَرعِ الأعضاء، قد تكون من أهمِّ الإنجازاتِ الطبيّةِ في النصفِ الثاني من القرن العشرين، واعتبرَ أنّ تجارةَ الأعضاءِ، قد تكون من أبشعِ الانحرافاتِ التي شابَت عالمَ الطِبّ في العَقدَين الأخيرَين، وترسّخَ لديه الاقتناعُ بأنّ التبرُّعَ بالأعضاءِ قد يكون من أنبلِ المساهماتِ في النضالِ الذي تخوضُه الإنسانيّةُ لأجلِ تحقيقِ انتصارِ الرجاءِ على اليأس، وغَلَبَةِ الحياةِ على المَوت.

وعلى غِرارِ مَن يكرّسون حياتَهم لدَعمِ قضيّةِ الحريّات، أو الدفاعِ عن حقوقِ المرأة، أو مناهضةِ التمييزِ العنصريّ، أو مَحوِ الأميّة، أو حمايةِ البيئة، أو غيرِها من القضايا المحوَريّةِ الكُبرى، قرّر البروفسور غصَين أن يتجنَّدَ لنَشرِ ثقافةِ وَهبِ الأعضاءِ في بلادِنا. وهو لم يدَّخِر جُهداً في هذا السبيل. فدأبَ على توثيقِ ما يُسجَّلُ في هذا المَجال، على الصعيدَين المحلّيّ والعالميّ، من مبادراتٍ مَشهودَة، وعلى تسليطِ الأضواءِ عليها، لإبرازِ دلالاتِها وأبعادِها. ولم يُخفِ إعجابَه العَميق بالقرارِ الشجاعِ الذي يتّخذه إنسانٌ في كاملِ عافيتِه، أو مريضٌ يُدركُ دنوَّ أجَلِه، أو عائلةٌ فقدَت لتَوِّها عزيزاً، ويوصونَ بموجبه بوَهبِ عددٍ من أعضائه لمُعاقٍ أو عليل. ومن أبلَغِ ما كتبَهُ في هذا الإطار، المَقالَة التي تناولَ فيها عمليّاتِ زرعِ أعضاءٍ لستَّةِ أشخاصٍ في يومٍ واحد، تبرَّعَت بها سيّدةٌ مجهولَةُ الهويّة، ودعا فيها إلى أنْ يُقامَ لها نُصبٌ كَنُصبِ الجنديّ المجهول، تقديراً لسخائها وتخليداً لِذِكراها.

وسعى إلى نقلِ هذه الأعمالِ الخَيِّرَةِ التي يُقدِمُ عليها أفرادٌ متنوّرون، من نِطاقِها الاستثنائيِّ والمحدود، بتحويلِها إلى قاعدةٍ عامّة، وتقليدٍ راسخٍ في أدبيّاتِنا، ومفاهيمِنا، وقِيَمِ مجتمعِنا.

ولطالما وفَّرَت له المنابرُ الأكاديميّة، وصفحاتُ الجرائد، والنَدَواتُ الإذاعيّة، والحلقاتُ التلفزيونيّة، وجمعيّاتُ وَهبِ الأعضاء التي نَشَطَ فيها، إطاراً مؤاتياً لحملتِه الهادفةِ إلى تنويرِ الرأيِ العام، وهدمِ الحواجزِ النفسيّة والأوهامِ الفكريّةِ التي تكبّله، مُسهباً في شرحِ مبادئِ عمليّاتِ وهبِ الأعضاءِ وزرعِها، وأهدافِها الطبيّة، والأحكامِ الدينيّةِ والشرعيّةِ والقانونيّةِ التي ترعاها وتحلّلها. وتميَّزَت جهودُه في مجالِ توعيةِ المواطنين على أهميّةِ التبرّعِ بالأعضاء، وفي حثِّهم على الانخراطِ في مسيرةِ التضامُنِ الإنسانيِّ هذه، بحماسةِ الناشطين في الأحزابِ والهيئاتِ والمنظَّمات، بل بغَيْرَةِ الرُسُلِ والمُبشّرين. ولا أراني بحاجةٍ إلى التذكيرِ بأنّ نضالَهُ هذا لم يَكُنِ البتَّةَ شعاراً نظريّاً بل وليدَ تجربةٍ شخصيّةٍ والتزامٍ عمليّ. فأنطوان غصَين هو من أوائلِ واهِبي الأعضاء في لبنان، ومِنَ الآباءِ القلائل الذين قُدِّرَ لهم

أن يُعطوا أبناءَهم الحياةَ مرَّتَين، فلقَد وهَبَ فِلْذَةَ كَبِدِه ميشال، فِلْذَةً أخرى من جسدِه، هي إحدى كِليتَيه.

ولا شَكَّ في أنّ هذا الاختبارَ العائليّ قد أثَّرَ فيه تأثيراً عميقاً وتركَ في جسدِه وفي فكرِه بصماتٍ لا تُمَّحى، ولكنّه عَرَفَ أنْ يتجاوزَ المستوى الشَخصيَّ ليرتَقي بالقضيَّةِ التي تجنَّدَ لخدمَتِها، إلى مرتبةِ العقيدَة، إن جازَ هذا التعبير.

فَلَقد رأى في وَهبِ الأعضاءِ ذروةَ العَطاء، بسببِ تجرّدِه عن المصالِح والحساباتِ والأهواء، وبسببِ مجّانيَّتِه المُطلَقَة. واعتبَرَ أنّه يمثِّلُ ما في الخيرِ من قوّةٍ لامتناهية، قادرةٍ على اختراقِ أسوارِ الانقسامات التي تُباعدُ بين البَشَر، لأنّه يَتِمُّ بين أفرادٍ لا تَشدُّهم صِلَةُ رَحِم، أو تربُطُ بينهم عَلاقَةُ معرفة، ولكن توحّدُهم الشراكةُ الإنسانيّةُ الجامعة.

وآمنَ بأنّ التبرُّعَ بالأعضاء، شأنُه في ذلك شأنُ كلِّ حَرفٍ في أبجديّةِ العَطاء، يُحيي الواهبَ والمتلقّي في آنٍ واحد، ويُلغي الحدودَ الفاصلةَ بين الحياةِ والموت. ففي اللحظَةِ التي يُتيحُ فيها واهبٌ فردٌ لعدَّةِ أشخاص، أنْ يُبصروا بقَرنيّتَيه، أو أنْ يَنبِضوا بخَفَقاتِ قلبِه، أو أنْ يَعيشوا بكِليَتَيه أو بفِلْذاتٍ من كَبِده، يُجدِّدُ أمامَهم فُرَصَ الحياة، ويستمرُّ هو حَيّاً فيهم، فيحوّلُ الموتَ الأصَمّ، من حتميَّةٍ قاهرةٍ لا مردَّ لها، إلى يَنبوعِ رَجاءٍ وحياة، مُحقِّقاً من جديد في كلِّ مَرَّة سِرَّ الفِداء ومُعجِزةَ القِيامَة.

* * *

خاتمة

عجيبٌ أمرُ لبنان.

ففي الوقتِ الذي تعصِفُ به واحدةٌ من أقسى المِحَنِ وأعتاها، وتتآكَلُهُ الإنقساماتُ السياسيّةُ والطائفيّةُ والمذهبيّةُ المُستَعِرَة، ويتصارَعُ على أرضِه الأعداءُ والأشقّاءُ والأصدقاء، مُمعنينَ فيه تهديماً وتخريباً، ولا يتورّعُ الكُثُرُ من أبنائِه عَن تحريضِهم على ذلك، أو مُجاراتِهم فيه، فتكادُ مؤامرةُ تفكيكِ أوصالِه ومَحْوِه منَ الوجود تبلغُ مراميها، في هذه الظروفِ العصيبَةِ والمأسويّةِ بالذات، تُقيمُ الحركةُ الثقافيّةُ في أنطلياس مِهرجانَها السابِعَ والعِشرين، احتفاءً بالكتاب، وتكريماً للثقافةِ وأعلامِها.

وكأنّي بها، في حمأةِ هذا الانحطاطِ المُشين، وغِمارِ الأخطارِ المُحدِقَةِ والخطوبِ المُلِمَّة، وقد استبدَّ بشعبِنا اليأسُ الخانِق، تُصِرُّ على إعلاءِ شأنِ الفكر، وتوسيعِ مدى الحوارِ وآفاقِه، وتوطيدِ السِلمِ الأهليّ، توكيداً لِثوابتِ لبنانَ الأصيلَة، وتأسيساً لقيامَتِهِ الآتية، مهما طالَ بنا زمَنُ ترقُّبِها وانتظارِها.

فاسمحوا لي أنْ أوجِّهَ باسمكُم جميعاً، إلى هذا المنتدى الديموقراطيّ الفاعِل، المرصودِ للثقافَةِ وللحريّة، ومن خلاله إلى جميعِ المنابرِ الثقافيّةِ المَهجوسَةِ بمثلِ هذا الهَمِّ في هذا البلد، تحيّةَ تقديرٍ وإكبار، لأنّها تذكّرُنا بأنّ الثقافةَ جوهَرُ رسالةِ لبنانَ الفَذّة، وعنوانُ دورِهِ الخلاّق، وفي رأسِ مقوّماتِ وجودِهِ، وضماناتِ بقائِه، وشروطِ قيامَتِهِ المَرجوَّة.

واسمحوا لي أنْ أُزجيها الشُكرَ أيضاً، باسمِ جميعِ مُحبّي البروفسور أنطوان غصَين، وقادري مسيرتِه الأكاديميّةِ الحافلَة، ونجاحاته المِهْنيّةِ الباهِرَة، ومَزاياهُ الأخلاقيّةِ والإنسانيّةِ المتألِّقَة، على هذا التكريمِ الذي خصَّتْهُ به. فأنطوان غصَين، على تواضُعِه، جديرٌ بالتكريم.

ولكنّكم تعرفون أيّها السادَة، أنّنا حينَ نكرِّمُ هذا الطَبيب، فإنّما نُكرِّمُ :

مدينةَ زحله التي أنبتَتْهُ أرضُها الخَيِّرَةُ المِعطاء، وقد عَوَّدَتْنا أنْ تَجودَ بالقاماتِ الشامِخَةِ في كلِّ حقلٍ ومِضمار،

وجامعةَ القدّيس يوسف التي احتضَنَتْهُ وتفتَخِرُ بانتسابِهِ إليها طالباً متفوِّقاً، وأستاذاً لامعاً، وعَميداً مُجدِّداً،

والمستشفياتِ التي عَمِلَ ويَعمَلُ فيها، وفي طليعَتِها مستشفى أوتيل ديو، الذي اقتَرَنَ به اسمُهُ، وفيهِ تجلَّتْ مواهبهُ الاستثنائيّة وإنجازاتُهُ الرائدَة،

ونكَرِّمُ فيه، قبل ذلك كلِّه، وفوقَ ذلكَ كلّه، الجرّاحَ والإنسان، والمِهْنَةَ التي ارتقى بها إلى مرتبةِ الرسالة، وباقةً مختارَةً مِنَ القِيَمِ والمَزايا، قلّما تجمَّعَت في رجلٍ فَرد.

فإلى الحركةِ الثقافيّة، الداعيةِ إلى هذا التكريم، الشكرَ الخالِصَ والعَميم ؛ وإلى المُكَرَّم، الصَديق أنطوان غصَين، تحيّةَ وفاءٍ وتقديرٍ ومحبَّة ؛ وعليكم جميعاً، أيّها الكِرام، ألفُ سَلام.

كلمة البروفسور انطوان غصين

يحاول المرء أحيانا ، للتعبير عن امتنانه وعرفانه ، أن يفتش عن كلمات غير تقليدية ، وبعد البحث والتبحر والعودة إلى القاموس لا يجد أبلغ من كلمة شكرا .

فالشكر إذن للحركة الثقافية انطلياس على نبل مبادرتها لأنها جعلتني من مستحقي تكريمها وتقديرها وللكلمة النبيلة التي خصني بها .....

والشكر للدكتور هنري العويط الذي غمرني بفيض محبته.

وبعد ،

إذا كان من المألوف أن تكرم مؤسسة عريقة كمؤسستكم ، أهل القلم والريشة والثقافة فإنه ليسعدني ويشرفني أن

يشمل تكريمها أيضا أهل المبضع هذا المبضع الذي كم من الأحيان يكون "أصدق أنباء من الكتب" وذلك لتأكيد انفتاحها وتعاملها مع مختلف جوانب الفكر والعلم والعطاء.

أيها السادة،

يكثر الحديث عن دور الطبيب في مكافحة المرض والألم وعن "أنسنة" رسالته. ولو واكب ذلك بعض الانتقاد المبرر أحيانا. وغير المبرر إذا "جرت الرياح بما لا تشتهي سفينة المريض" وإرادة ربانها. لكن ثمة دورا فريدا لهذا الطبيب لم يحظ من المفكرين والمحللين بما يستوجبه من الاهتمام والتأمل والتركيز عنيت مصالحة الانسان مع خالقه. إذ لدى الإصابة باي مكروه أو اذى فإن أول كلمة تصدر عفويا وتلقائيا عن فم المريض : "يا الله" وهي تحمل صرخة ملامة أو استرحام : الملامة إذا كان المصاب يعتبر نفسه بريئا. والإسترحام إذا كان يشعر بأنه مخطىء.

وهنا يبرز دور الطبيب المسؤول عن ترميم الحياة وصيانتها–والحياة من صنع الله–في إصلاح ما يحدث للإنسان من عطل في العمل الرباني . وفي ازالة العتاب على الخالق الأكبر ويكون هذا الإنجاز الطبي. الذي يبدو وكأنه تفويض من القدرة الإلهية – لها التعظيم والإجلال – مصدر إيمان وشكران عند المريض ومصدر فخر واعتزاز عند الطبيب. وهذا الإحساس يبلغ ذروته إذا صادف أن يكون المريض هو الطبيب أو أحد أحبائه او القريبين منه.

ان شعوري بهذه المسؤولية الكبرى هو الذي يحدوني لتقبل تكريم الحركة الثقافية انطلياس ولأعرب لها عن شكري وعن أملي بأن أكون مستحقا ثقتها وتقديرها. وعن شكري. أيها الأصدقاء. لحضوركم ومشاركتكم.

عشتم وعاش لبنان الثقافة والإبداع والسلام

ندوة حول كتاب محمد شيّا

كمال جنبلاط ... لزمن آخر

كلمة د. انطوان سيف

كلمة أدونيس العكره

كلمة رضوان السيد

كلمة شكر: محمد شيا

كلمة د. انطوان سيف

ترخي مقاربة الأعلام وهمَ الإحاطة وإمكان ضبط تخومها وتقليص حوافيها؛ إلاَّ أن الموضوعيَّة المنشودة لا تقي طالبيها الأوفياء من زلل الانحياز الذي لا ينفصم عن الشغف المعرفي الذي يقدِّم لموضوعيته إماراتِ غنىً لا تراودها العقولُ الباردة. مثل هذه المفارقة واجهها الدكتور محمَّد شيَّا عندما حسم قراره بإخراج مكنونات وثائقه الشخصيَّة الحميمة المخبوءة على مدى عقود، الى البيدر العمومي الذي جعله كتابه كمال جنبلاط... لزمن آخر"، ليس هتكاً للمستور عن شخصية فكرية فريدة لطالما نُصِّبت هدفاً لمواجهات شتَّى، أكثر مما هو مجازفة في أصقاع كابدت الكلمات الكليَّة للفلسفة والدين والسياسة والشعر كي تصدَّ تقاطُعَها وتداخُلَها بل تماهيها. يزيد من وعورة المغامرة وتهيُّبها أن "البناء الفكري لكمال جنبلاط الذي تشكَّل من غير انقطاع في سيرورة متدفقة متعددة الطوارئ الذاتية والموضوعية، هي توليفة واسعة من مناهل متباينة في الظاهر، أعاد صوغها وصالحَها ووحَّدها في رؤية شمولية عقلية، وما وراء عقلية، صوفية موصودة الأبواب بإحكام على غير أهلها، وأغناها باستمرار بتجربة شخصيَّة نادرة باح بها دوماً بالحرف المنطوق والمكتوب، "وبما يتعدَّى الحرف". أضف إلى ذلك أنَّه حوصر في الأذهان ضمن إطار ضيِّق أحادي الحقل هو صورة الزعيم السياسي اللبناني، هذه الصورة التي استغرقت مشهديته الكبرى، والتي لم يرضَ الاَّ بتأويلها في ابعادها الحقيقية التي لا معنى لها من دونها، في ذلك النص الأخَّاذ الذي أصدره توضيحاً ضرورياً بعنوان: "رسالتي كنائب".

مع محاذرة المؤلف تجزئة وحدة الأنا، إلاَّ لدواعي منهجية العرض، فإن الكتاب يتمحور على الخصوص حول شخصية كمال جنبلاط المفكر الشاعر الفيلسوف الذي تطرَّق الى كل المسائل التي شغلت معاصريه في بيئته الثقافية الاجتماعية وفي العالم. وان العمق الذي قاربها به، ومناقشتها بالتحليل والمقارنة والمقابلة مع الأفكار

القاعدية التي التزمها وطوَّرها وأغناها باستمرار، يسبغ عليها طابعاً فلسفياً فريداً. فالاهتمام الكبير بالكشوفات الفكرية والعلمية ومحاولة جمعها، على تناقضها الظاهر، ضمن السياق منسجمة ظلت دأبهُ. ولئن كانت هذه المحاولات الفكرية مشرذمةً في اكثر من ميدان، فإن ثمة ابحاثاً عدة حول شخصه غامرت بايضاح الضمني منها في وحدته المتماسكة التي تغيب غالباً عن كثير من الأذهان. لقد استوعب جنبلاط بغبطةٍ الحدث الدارويني المفصل حول التطوُّر الأحيائي، ولازمه بالتطوُّر الروحي او التطور الابداعي كما سمَّاه برغسون، حيث الأحياء ميدان الحدس والغريزة التي هي المعرفة العميقة الداخلية بموزازاة الذكاء الذي هو المعرفة الخارجية الكمية القائمة على القياس المكاني، أو الامتداد الديكارتي. فتيَّار دو شاردان الراهب المسيحي رأى في هذا التطور سنَّةً إلهية يجعل المادة الجامدة تسير في التاريخ، بنحو من الجدل الصاعد الأفلاطوني، نحو الحياة والروح، أي الارتقاء الروحي العقول الجامدة الكسولة لم ترَ فيها سوى تناقض وانحراف. إلاَّ أن الفكر الجدلي من هيراقليطس الى هيغل وماركس يرى إليه حقيقةَ الوجود المادي؛ هذا الوجود صالحه جنبلاط ليس مع العقل والروح فحسب، بل مع الحياة المجتمعية التي جعل التقدُّم (أي التطوُّر) غايتها الانسانية، واداتها الاشتراكية التي وضعت كل الثورات، وعلى رأسها الثورة الفرنسية وشعاراتها، في حركة انسانية واسعة لا يعيق سيرورتها المتقدمة إلاَّ الذين انحرفوا عن أبعادها الانسانية الروحية الراقية. في عالم جنبلاط التوحيدي، تتلاقى التطلعات الدينية التي هي مواقف مختلفة من الحق الأوحد، والذي رأي في انتمائه الديني الى معتقد الموحدين الدروز مثالاً لجمع الأديان، كما جمعَ في الصيرورة التاريخية الصاعدة الحياة بأبعادها الروحية الصوفية المتحررة دوماً من كثافة المادة الجسمية، وبأبعادها الاحيائية التي تترقى دوما من الجماد (كما قال دو شادران) وبأبعادها الاخلاقية والدينية والاجتماعية في نظام الاشتراكية التي ماهاها بالانسانية الراقية وجعلَ عمل الانسان الفكري والجسدي أداة تحقيقها ضمن اطار الاخوة البشرية.

هذه التوليفة synthèse الكبرى يمكن ان نقرأها على خلفية مسلكه السياسي، لا بالعكس. هذا ما حاول ان يضمّه محمد شيا في كتابه الذي نتحلَّق هذا المساء حوله لمناقشته ومعايشة قبس قاعدي من وجود كمال جنبلاط المستمر في تاريخنا. ولننسَ في هذا المقام الخلافات السياسية، ليس لعدم اهميتها، بل لأنها لا تدخل في نطاق هذه المقاربة.

أود أن أختم كلمتي بهذا النص له، وعمره أكثر من نصف قرن: "كان لبنان ولا يزال، بالرغم من التناقضات والمفارقات والتعاكسات والتنوعات التي يتضمنها ويحتضنها، يشكّل وحدة للعيش واحدة، وحده للحياة المشتركة. وقد يكون في ذلك الحدّ والسبب الذي يجعل للتناقضات والمفارقات والتنوعات والاختلافات والأزمات كافة في النهاية حلاّ واقعياً منسجماً، وتسوية معقولة، وتأليفاً يحافظ فيه على طرفَي النقيض وقطبَي التعاكس في عملية تطوُّر الحياة الحقيقية التي تجمع على الدوام بين التناقضات، ثم تهدمها لتبني تناقضاً آخر أكثر انسجاماً... فوحدة العيش، وحدة الاقتصاد، وحدة الحياة، وحدة الاختلاط والاشتراك هي على الدوام الغالبة المنتصرة... ان الكيان اللبناني، رغم العواصف التي تمرُّ به، يتأكد ويتثبّت في ازدياد مطّرد، وعلى الدوام، في بصيرة جميع اللبنانيين... وقد يدركون يوماً، أكثر مما يدركون الآن، أنهم أوَّلاً أبناء هذه الوحدة الحياتية، وحدة الاقتصاد والاجتماع وتشابك البيئة، قبل أن يكونوا نصارى وسنَّة ودروزاً وشيعة وسواها من المذاهب... وقد يبزغ يوم يترك

اللبنانيون فيه للآخرة خلافاتها واختلافاتها، ويجتمعون على ما اتفقوا عليه من شؤون هذا الوطن الذي أنشأه لهم وحقّقه واقع الزمان والمكان، قبل ان أرتضوه هم لهم خيمة أرضية يفيئون اليها في هذه الحياة الفانية القصيرة.."

ويضيف: "لبنان وجد لكي يكون بلد العقل، بلد العقلانية، أثينا هذه البقعة من الشرق... لولا العقلانية لما قام هذا الوطن ونما وتطوَّر".

ويقول كمال جنبلاط أخيراً: "فوظيفة لبنان في الشرق العربي ان يكون كذلك بلد التقدم والحرية".

كلمة أدونيس العكره

في هذا اللونِ الرماديِّ الغامقِ الملتفِّ به الواقعُ التاريخيُّ في لبنانَ والمنطقةِ بأسرها، أصبحت صورةُ الحياة هَرِمة ، وسيرورتُها صارت على نهايتِها . قرارُ موتِها ينتظرُ في جوفِها التنفيذ، وحفّارُ قبرها قابعٌ في أحشائها . صفحةٌ أخرى من تجلّيات العقل في تاريخنا أكملت غربتَها وصارت للنفي. الغسقُ يهبط علينا كلِّنا، وحيويّةُ الحكمةِ الدافعةِ التاريخَ الجديدَ ، طال انتظارُها وصار مريرا . إن لم نشهد لضرورةِ موتِ واقعِنا يشهدْ موتَنا الآخرون ، وتصمتْ ثرثراتُنا أمام رَصانةِ التاريخ .

"كمال جنبلاط... لزمنٍ آخر"!! وماذا بالامكان الانتظارُ بَعدُ، يا صديقي محمد شيّا ؟ لأيّ زمنٍ من الأزمانِ آخرَ، كمال جنبلاط ، إن لم يكن لهذا الزمن بالذات ؟.. إلا إذا كان كتابُك موجَّها الى من كنتَ وكنا نعتقد أنهم سيتجرّؤون على استئنافِ نضالِ الرجل إثباتا لصدقيّته وللحقيقةِ التي ناضل واستشهدَ من أجلها، فلم يدركوا الى ذلك سبيلا. أما أنتَ القائلُ إنّ كمال جنبلاط " قد استشهد دفاعا عن الحقيقةِ كي يبقى هناك حقيقةٌ، وكي يبقى هناك من يدافع عنها "؟

في بدايةِ الكتاب، حسِبتُكَ حزمتَ أمرَك في شَيل كمال جنبلاط من زمننا هذا دون معرفتي الى متى. قرأتك في بعض لحظات السطور كأن كمال جنبلاط ماضٍ مضى وصار الغيابَ والحنينَ ، واشتياقُكَ اليه وضّاح. تصفه بالمعلّم، وتخاطبه كأنه منتصبٌ أمام دفترِك والقلمِ المهتزِّ بين يديك يكتب:"... الناسُ الذين أحبوك {صادقون}". ففي ما كتبتَ ، يا صديقي، كنتَ الناسَ هؤلاء في صدقِهم ، ولهيبِ شوقِهم الى حبيبٍ يصبح العالمُ في غيابه قَفرا مقفرا :

Un seul être vous manque, et tout est dépeuplé

وجدتُكَ مترجِما هذا البيتَ / القصيدةَ عندما تقول:" ليس لبنانُ فقط، ولا المنطقةُ العربيةُ فقط، هما اللذان تغيّرا ... بل العالمُ بأسره قد تغيّر مع استشهادِ كمال جنبلاط (...) العالم بعد استشهاد جنبلاط... عالمٌ بات خاليا من الحقيقة، بات خاليا من المعنى (...) لذلك تحوّل جنبلاط بمُثُلِه وقيمه... رمزا مستمرّا لعصرٍ جميلٍ مضى مع قيمه الى النهاية". غير أن هذه القصيدةَ لم تُشِح عن بالي لحظةً أن شيئا عظيما من تلك الحقيقةِ لم يمضِ ، وهو لا يزال راسخا في وفائك للصديق والقائد والمعلّم . يكفيك هذا نُبلا يحفّزكَ على استئنافِ غُمرٍ من النضالاتِ وفاءً للرجل.

يا صديقي، إذا كان زمنٌ ماضٍ قد مضى مع كمال جنبلاط، فالحاضر هو زمنٌ آخر. وكمال جنبلاط هو حقا لهذا الزمنِ الآخرِ الحاضر، لأنك إذا التفتّ الى ما ينتابنا اليوم ، والى ما يحيط بنا في هذه المنطقة، وفي غير مناطق، تجدْ أنّ العالمَ لم يتغيّر، ولا أيَّ شيءٍ من أولوياتِ جنبلاط تغيّرت قضيّتُه. ألم تقل إن الحريةَ واحدةٌ من أولويّات المعلّم؟ في ما مضى، وقبل جنبلاط بأدهرٍ دهارير، كانت الحريةُ في شريعةِ الغابِ مطلقة : الذئبُ حرّ وحرّيتُه مطلقة، والحملُ حرٌّ وحرّيتُه مطلقة. ولكن المطلقَ يفترس من لا يستطيع الإفتراس. أفهل تغيّر شيءٌ فعليّ في هذا المعطى؟ في زمن جنبلاط ، وفي زمننا الحاضرِ الذي جعله التاريخُ الزمانيُّ آخر، نتجت باسم الديمقراطيةِ منظومةٌ دوليةٌ تحكمُها شريعةُ الغاب من جديد ، ولكن بوسائلَ أخرى أشدّ عتوّا. وها نحن في معترك نظامٍ عالميّ جديدٍ فيه الحقُّ للأقوى : فالأقوياءُ في هذا النظامِ أحرارٌ بحرّيةٍ مطلقة ، وفلسطينُ ولبنانُ والعراقُ أحرارٌ بحرّية مطلقة. ولكن المطلقَ يفترسُ من لا يستطيعُ الافتراس.

لقد ناضل المعلّم في مضمار النضالات التنويرية التي جعلت الحريةَ المطلقةَ لاغيةً من الفضاء البشري ، وانحبسَت داخل القانون الفارضِ نفسَه معيارا لها بموجب الإرادة العامة: أن تكون حرّا ، يعني أن تفعلَ ما تريد. هكذا كان في شريعةِ الغاب . أما استمرارُه في شريعةِ البشر ، فكان بصيغةِ أنوار العقل : انت أردتَ القانون ، فأنت حرّ عندما تخضعُ له ، لأنك تكونُ فاعلا ما أردت . عند ذاك، أصبح الـ" أنا " صاحبَ حق ، وأصبح الـ "غيرُ" صاحبَ حق. والحقُ لا يضادّ الحقَ الواحد المشترك.

ألم تقل إن النضالَ من أجل هذه الحرية البشرية بالذات هو أولويةٌ من أولويات جنبلاط ؟ "إن الحريةَ تلك – تقول – لا تُكتسبُ من غيرِ مُجاهدَة ... والنضالُ (من أجلها) أولويةٌ لا بدّ منها". كلنا يعرف أن هذا الموقفَ الفلسفيّ التنويريّ الذي انضمّ اليه القائدُ المعلّم ، أنتجَ نسبيّةَ الحقيقةِ البشرية المتعدّدةِ الجوانبِ والمُمكنات ، وصار الحقّ بالاختلاف حقّا بالاختيار بين الممكنات المطروحة أمام الحرية ، وأمام نقد العقل المحاور في البحث عن المشترك ، وصار واجبُ الاعتراف بالآخر هو الأمثلُ البشريّ النسبيُّ الرامزُ للمطلقِ الإلهي . كما أنتجَ أيضا مفهومَ الشعب مصدرا لسيادة الأمة ، ومفهومَ الحاكمِ المستمدِّ قرارَه من سيادةِ الشعب وإرادتِه الحرة ، ومفهومَ المواطن طرفا في العقد المرجعيّ للمجتمع والدولة ، ومفهومَ الدولةِ المدنية العادلةِ بغيرِ استبدادٍ في مساواة الناس بمعزلٍ عن جميع اختلافاتِهم الطبيعيةِ والثقافية ، بما فيها الدينُ والجَندَر ، ومفهومَ الحق للانسان بحرّيةِ المعتقدِ والتفكيرِ والرأي والتعبير . إن هذه الحقيقةَ تحتاجُ في زمننا الحاضرِ الى متابعةِ نضالِ كمال جنبلاط لكي يشهدَ الواقعُ التاريخيّ على أحقّيتِها، وعلى جدوى الشهادةِ من أجلها .

إن العقلَ الفلسفيّ العربي لم يستطع الانتصارَ بالأنوارِ، فهزمَته قوى الاستبدادِ والتسلّط. والأفكارُ التغييريةُ الكبرى التي حققها الفكرُ الفلسفيُّ في تاريخِنا العربي ، لم تتمكّن من تثبيت مواقعِها في حياتنا العامةِ داخلَ مجتمعاتنا الراهنة ، ولم يزل العقلُ عندنا عاجزا عن انتشالِ الانسانِ العربيّ من الذهنيةِ الغيبيةِ الى ذهنيةٍ تنويريةٍ قادرةٍ على تأسيسِ مجتمعٍ مدنيّ وسياسيٍّ حديث ، قائمٍ على مبدأ التعاقد بالارادةِ الحرة ، ومبدأِ الحقِ بالاختلاف . إن ذهنيتَنا اليوم لا تزال جاهزةً للقبول بسلطةٍ آمرةٍ من خارج إطار المعرفةِ العقلية ، وبمعزلٍ عن حرية الرأي والتعبير، ومن خارجِ سلطةِ الإرادةِ العامةِ وحريتِها ، فيمتنعُ العقلُ النقديُّ عن ممارسةِ وظيفتِه المعرفيةِ والتغييرية إزاءَ استبدادِ المطلقِ وحرّاسِه على الأرض ، فيحصلُ أن الحقَ بالاختلافِ يرادف جرمَ المخالفة .

شهداءُ كثيرون سقطوا من أجل ذلك في ساحة الإصلاح والتغيير – كما يحدّد الدكتور شيّا ساحةَ نضالِ كمال جنبلاط، وساحةَ استشهادِه. هذه الساحةُ التي تحتشد عناصرُها في متنِ هذا الكتاب، كانت بالنسبةِ اليّ لافتة . فبين الإصلاحِ والتغيير من جانب المؤلف، والتغيير والإصلاح من جانبي، واقعٌ تاريخيٌّ هَرِمٌ صار للنفي ، وأقدارٌ تاريخيةٌ محتومةٌ تمتدّ صوبَ آفاقها مشتركاتٌ يعصو حصرُها. أفليس من الضرورة الحتمية النضالُ معا لكي ندفعَ بحركة التاريخ الى حيث يجب ؟ إن عجلةَ التاريخِ عندنا تجري ببطءٍ سقيم، فهي تحتاج الى "دَفشَةِ" إصبع. هل أن بين أقدارِنا المشتركةِ قدَرًا مدسوسًا يُبعِدُ بين المثقف والسياسي الكامنينَ في كلّ منا؟ لقد ذكر المؤلفُ شذَرةً من خطابٍ لكمال جنبلاط ، المناضلِ السياسي والمثقف، ألقاه عام 1950 جاء فيه:" ثقوا ايها الرفاق أن علينا أن نربحَ الأرضَ لكي نستطيعَ أن نربحَ السماء". إن ربحَ الأرضِ في ثقافةِ "المعلّم" يعني تنظيمَ المشتركات في مجتمعٍ متآلفِ العناصر المتنوّعة بحريّةٍ تضمنها سلطةٌ غيرُ مستبدّةٍ في دولةٍ مدنيّةٍ ديمقراطية. نصفُ قرنٍ مضى على هذا الخطاب، ولا زالت أولوياتُ النضالِ هي نفسُها . فأين أصبحنا من ربحِ الأرض؟ إن بعضا من الاختلاف القائم بين الثقافة والفعل السياسي يكمن في المعايير : فبينما تستندُ الثقافةُ الى معايير الصواب والخطأ، الخير والشر، الجمال والقبح... يستندُ الفعلُ السياسي الى معيارَي النجاح والفشل، بحيث إذا نجح الفاعلُ السياسيُّ في مشروعِه لأصبح بطلا، ولو كان قد استخدم من الوسائلِ الأسوأَ شرّا ، وإذا فشلَ التصقت به كلُ شرورِ الأرض، ولو كان قد استخدمَ من الوسائلِ الأمثلَ نبلا وخيرا . لو أراد كمال جنبلاط المثقف ممارسةَ الكذبِ في سياسته ، فهلاّ كان استشهد ؟ إذا كان الجوابُ نفيا، فهلاّ كان بقي منه "المعلّم" ؟

يا صديقي الدكتور محمد شيّا ،

ليتنا نستطيعُ على هذه الأسئلةِ الجواب. يبقى أن خلفَ كتابِك تلوحُ مساءلاتٌ تستلزم من الأجوبةِ ما يُقرُّ لـ "المعلّمِ " ربحَه قيمَ السماءِ في الانسان على الأرض، ومن الأجوبةِ ما يُبقيه شهيدا لوطنٍ تمنعُ قيمُنا المشتركةُ تركَه على طريقِ الشهادة .

كلمة رضوان السيد

كتاب الزميل والصديق محمد شفيق شيّا: "كمال جنبلاط... لزمن آخر" في السياسة والدين والفلسفة والشعر، هو كتاب معرفة ومفتاح لهذه الشخصية النادرة والساحرة شخصية كمال حنبلاط السياسي والمفكر والشاعر وقبل ذلك وبعده: كمال جنبلاط الانسان. وعلى رغم شمولية الكتاب وعمقه فإني اعتبر فصلي المناضل والسياسي بين افضل فصول الكتاب. ويرجع ذلك الى "المفتاح" الذي اختاره الدكتور شيا ليكون مدخلاً لفهم رسالة كمال جنبلاط وعمله في الشأن العام المحلي والعربي والدولي. فقد اعتبر الدكتور شيا الاخلاق بالمعنى الكبير معياراً لعمل جنبلاط الكبير في شتى النواحي ونجاحه في السياسة والعمل السياسي. وانا ارى انه وُفِّق كثيراً في هذا الامر. فمن الاخلاق التي تشكل جوهر او تبلور انسانية الانسان ينبثق المناضل من اجل التغيير للاقتراب من تلك القيم الانسانية الكبرى ويتحول المناضل الى رجل سياسة ودولة او لا يتحول وتكون الدوافع الاخلاقية او النوازع الاخلاقية هي السبب سلباً وايجاباً.

والواقع ان هذا التوتر في فكره وعمله بين المناضل والسياسي لا يفسره غير الدوافع الاخلاقية التي حدته ورافقته وحكمت غالبية كتاباته وتصرفاته. فالدرس الاخلاقي عنده حالة صفاء مع النفس، ولبلوغها يحتاج المرء الى جهود جبارة لتتحول حالة الصفاء تلك الى "خلُق" او "سِمة" من سمات الشخصية. غير ان شخصية كمال جنبلاط – كما اوضح الدكتور شيا – ليست شخصية مكتفية او منطوية بل انها كلما اقتربت الى حالة الكمال، كلما فاض منها على ما حولها شيء من كمالاتها. ولان الدوافع اخلاقية أي متصلة بتحقيق انسانية الانسان الاسمى، فإن الذي غلب على كمال جنبلاط الطابع النضالي من اجل تحقيق ذاك الهدف لنفسه وللبنانيين وللعرب وللناس اجمعين. والمناضل تغييري، وكمال جنبلاط تغييري ايضاً كما يتجلى في سيرته وعلى مدى ثلاثين عاماً. لكنه لا يقول بالتناقض بين الواقع والمثال، ويؤمن بالتسوية لثلاثة اسباب: احدها فلسفي، والآخر اخلاقي، والثالث سياسي.

في الفلسفة يقول كمال جنبلاط التعارض وليس بالتناقض. واعادة الوحدة بين الانسان باعتباره قيمة مطلقة. والانسان باعتباره واقعاً ملموساً، هو سر استمرار الحياة الانسانية. وفي الاخلاق فإن النضال اذا كان هدفه كسر الآخر فإنه انكسار وليس انتصاراً. اذ كيف تكسر ثم تريد ان تجبر ومن يكسر يستعصي عليه الجبر. وفي السياسة فإن عمل السياسي في ادارة الشأن العام هو جعل الدولة والمؤسسات تعمل من اجل خدمة الانسان ولذا فهي تعتمد على التسويات وعلى التنازلات المتبادلة والمرحلية.

ولستُ ازعم ولا الزميل المؤلف يزعم ان ذلك مضى عند كمال جنبلاط، أي الاتصال بين المناضل ورجل الدولة، بدون توتر. فهو ذو نزعة اخلاقية حادة في سعيها نحو المثال بيد ان الرؤية الفلسفية والضرورات السياسية التقت عنده

في الغالب لتجعل منه السياسي الكبير الذي عرفه لبنان وعرفه العرب وعرفه اشتراكيو العالم ومناضلوه. انما المهم ان لا تحيد عن الهدف في خدمة قضايا الانسان. وعلى هذا الاساس والمقياس ترتبط السياسة كما سبق بالاخلاق، وتنجو في نهايتها العملية من ان تصبح انانية او انتهازية. فلدى ميكافيللي السياسة تبرر الغاية فيها الوسيلة. وعند غاندي السياسة وسيلة لغاية. وبين الامرين تقع نجاة السياسي ورجل الدولة او هلاكه.

هكذا كان كمال جنبلاط مناضلاً من اجل قضايا الانسان والمواطن، لانه اخلاقي. وكان سياسياً كبيراً لانه اخلاقي ايضاً. فالاخلاق بالمعنى الكبير هي مفتاح فهم شخصيته الانسانية والسياسية. وهذا لا يقلل من غنى تلك الشخصية بل يزيدها ثراءً. اذ إنه حاول الوصول الى الانسجامين الداخلي والخارجي كل الوقت وبالتفكير والكتابة والشعر والعمل مع الناس والرحلة في طلب الحق بالمعنيين الروحي والمادي.

كتاب الصديق الدكتور محمد شيا كتاب عذب. ومع انه لا يعرض لكمال جنبلاط نصوصاً لا نعرفها، لكن هذا الزمن الآخر الذي نعيشه يجعل من كتاب الدكتور شيا شيئاً جديداً تماماً، كما يجعلنا نحس ازاءه احساس البدايات الطازجة.

كلمة شكر: محمد شيا

اود ان اشكر الحركة الثقافية انطلياس الجهة المنظمة لهذا الحدث الثقافي المميز على استضافة الندوة والتوقيع واشكر حضرة العماد سليمان لإرساله ممثلاً له في المناسبة، كما اود شكر الدكتور ادونيس العكرة والدكتور رضوان السيد والدكتور انطوان سيف لمراجعتهم الكتاب وكلامهم المهم فيه. واشكر السادة الحضور الذين شاركوا في الندوة والتوقيع. لن اضيف الى ما سمعتموه وما تضمنه الكتاب الا قولي ان تفاضيل كثيرة من برنامج كمال جنبلاط الفكري والسياسي ربما لم تعد في رأي البعض من الاولويات في هذه اللحظة من حياة الوطن. الا ان الاكثر اهمية من التفاصيل التي يصح فيها الاجتهاد باستمرار، الاكثر اهمية هو روح مشروع كمال جنبلاط والمبادئ العامة فيه. روح المشروع الجنبلاطي هو تحويل لبنان الى وطن حقيقي للانسان لا للطوائف والعشائر والمآرب النفعية الفئوية والخاصة، ولا للمصالح الاقليمية والدولية. ومبادئ المشروع العملي التي ارساها المفكر والمناضل والشهيد لا زالت هي البوصلة.

اذ لا يزال الاصلاح الشامل هو الحل،

ولا تزال العلمنة هي الحل،

والاشتراكية الديمقراطية الانسانية لا زالت هي الحل.

وكذلك العروبة الحضارية المتنوعة المنفتحة لا المستبدة او المتزمتة لا تزال هي الحل.

هوذا برنامج كمال جنبلاط الوطني الاصلاحي والتحديثي: الديمقراطي من دون فوضى، واللبناني من دون شوفينية، والعروبي من دون استبداد وطمس للخصوصيات، والاشتراكي من دون تدمير للاقتصاد، والعلماني من دون معاداة للدين.

وتقدم الاحداث المتلاحقة ادلة يومية على مدى استشراف الروح الجنبلاطي للسنوات التي تلت، وصحة المبادئ التي استند اليها مشروعه الفكري والسياسي.

لذلك تبدو العودة الى ذلك التراث الغني امراً مطلوباً وهو يعني جميع الوطنيين والاصلاحيين والديمقراطيين من دون استثناء.

وشكراً للجميع

نـدوة حول كتاب د. شفيق المصري

لبنان والشرعية الدولية

القضية اللبنانية أمام المحافل الدولية وفي ضوء القانون الدولي

كلمة المحامي جميل جبران

كلمة الأب فادي فاضل

كلمة الدكتور سامي سلهب

كلمة الدكتورة مرغريت الحلو

كلمة الدكتور شفيق المصري

كلمة المحامي جميل جبران

في هذا الجو من الصخب السياسي الذي يهيمن على حياتنا الوطنية ، يشتبك أطراف الداخل مع بعضهم البعض، في ظل الإشتباك الأوسع بين قوى أقليمية ودولية ، في ، وحول ، تلك البقعة الممتدة من **« الخليج الى المتوسط ومن بحر عُمان الى البحر الأسود ، والتي تشكل ، في المفهوم الإستراتيجي الأميركي ، بعد الحرب الباردة ، وحدة أمنية – سياسية – أقتصادية متكاملة »**.

جفرافياً ، يشكل لبنان أحد مداخل هذه البقعة ، المشرع الأبواب في كل الإتجاهات ، مما يغري قوى الخارج بالتدخل الذي يتمفصل على الأزمة أو ألأزمات الداخلية ليؤججها ويحولها الى ورقة في جعبة اللاعبين الكبار .

وعلى وقع هذه الأزمات ، تتوالى القرارات الدولية ، من مجلس الأمن عادة ، وأحياناً من الجمعية العمومية ، نظرياً لإيجاد حل ، وعملياً لتحديد أطر الصراع ، وتحديد الأهداف التي يقتضي بلوغها من خلال آليات يلحظها القرار أحياناً أو يتركها للفرقاء المعنيين أحياناً أخرى ، مع التذكير والتأكيد دائماً بالمبادئ الثابتة للقانون الدولي .

وبعد صدورها ، تتحول القرارات الدولية أداة جديدة للصراع ومادة له . فيرى البعض فيها تدخلاً من الأمم المتحدة في الشؤون اللبنانية الداخلية أو مساساً بمبدأ السيادة الوطنية ، أو وسيلة سياسية تستغلها القوى الكبرى لفرض هيمنتها ، أو ممارسة ضغوط لتغيير أو تبديل سياسة دول أخرى الخ ...

وتتراشق اطراف الداخل والخارج بها ، وبتهمة مخالفتها أو التملص من احكامها أو الحؤول دون تنفيذها . وترشقها بعض أطراف الداخل بالنعوت التي تنفرد بها لغة التخاطب السياسي الهابطة عند بعض اللبنانيين ، و يتبدى ان هناك الكثير من الإلتباس في العلاقة بين السياسة والقانون ، وقصوراً في فهم معظم مبادئ ومفاهيم

وآليات القانون الدولي ، مما ينعكس تعميقاً للخلاف في السياسة الراهنة على صعيد الداخل ، وترددا أوضعفاً في الدفاع عن القضايا والمسائل الوطنية أمام المحافل الدولية السياسية والقضائية.

في هذه الأجواء الضبابية الخانقة ، صدر للدكتور شفيق المصري كتاب **« لبنان والشرعية الدولية »** وعنوانه الفرعي **« القضية اللبنانية في المحافل الدولية وفي ضوء القانون الدولي »** وهو موضوع ندوتنا الليلة ، جامعاً القضايا المطروحة في هذا الإطار والتي تؤرق اللبنانيين من ناحية وتؤجج خلافاتهم من ناحية ثانية ، ومعالجاً لهذه المسائل بعمق ، وموضوعية ، ووضوح ، وبدقة الباحث والعالم المتمكن ، ذي المؤهلات الأكاديمية الصلبة ، والخبرة المديدة ، كأستاذ القانون الدولي والعلاقات الدولية ، في عدة جامعات ، وصاحب الإسهامات الفكرية المتعددة في مجال اختصاصه.

يتصدى الدكتور المصري للقضايا التي يعالجها بمقاربة قانونية بحتة ، مجردة من الأهواء أو الخيارات السياسية ، ولا يخالطها بالتاريخ أو سواه من العلوم الا بالمقدار الضروري لإيضاح القاعدة القانونية ، فتنجلي طبيعة القرارات المتعلقة بلبنان وقوتها الالزامية ، وتظهر الى العلن بعض الجوانب المغفلة منها ، أو بالأحرى التي أغفلها أو يغفلها ، أو ربما يتجاهلها البعض ، وهي ذات أهمية بالغة لوحدة لبنان وسيادته واستقلاله . وسوف نشير بلمحة سريعة الى بعضها.

وفقاً للدكتور المصري (ص 99) **« يستطيع لبنان ان يجاهر ، واثقاً ، ان الأمم المتحدة سعت ، منذ تشكيلها في العام 1945 حتى الساعة الى رعايته واحترام حقوقه وتأكيد استقلاله السياسي ووحدته الإقليمية »**.

هذه المواكبة من الأمم المتحدة التي تدعو الى بعض الإطمئنان ، تثير أيضاً القلق من ان هذا الوطن مازال يعبر بحر العواصف ، ويستدعي بإستمرار ما قررته الجمعية العمومية للأمم المتحدة بتاريخ 9/12/1994 حول **« حماية وسلامة الدول الصغيرة »**.

فور انتزاع لبنان لإستقلاله الناجز ، وبعد ان تعرض للزلزال الضخم الناجم عن نشوء دولة اسرائيل والاستيلاء على فلسطين ، والاعتداء على حدوده الجنوبية ، وارتكاب المجازر بحق مواطنيه ، وخاصة مجزرة حولا . تمّ توقيع **اتفاقية الهدنة** بين لبنان واسرائيل. من المميزات الأساسية ، لهذه الإتفاقية ، وغير المتداولة في الوسط السياسي والإعلامي ، أنها تمّت بالإستناد الى قرارين دوليين متخذين تحت الفصل السابع (القراران رقم 54/48 و 62/48) وتمّت المصادقة عليها بموجب قرار (رقم 73/49) أتخذ أيضاً تحت الفصل السابع. أي انها ذاتية الإلزام ، على الجميع ان يتقيدوا بأحكامها ، فهي دائمة ولا يجوز تخطيها.

وتضمنت اعترافاً من إسرائيل بحدود لبنان الدولية ، دون أن تلحظ موجباً مماثلاً على عاتق لبنان تجاه اسرائيل . وهذا ما يفسر محاولة اسرائيل المتكررة ، ولكن دون جدوى ، بالتخلص منها ، فهي تعتبرها عبئاً غير مرغوب فيه. ويوصي الدكتور المصري ، عن حق وبإصرار ، بأن يرفض لبنان كل تعديل لهذه الاتفاقية . فإذا كان

هناك من ثغر بسبب مرور الوقت وتغيير الأوضاع ، فأن ما ورد بالقرار 1701 كفيل بسد هذه الثغرات.

قضية التوطين ، التي تشغل الرأي العام ، ويتداولها السياسيون كخطر أو كتهمة يوجهها فريق الى فريق آخر، يؤكد الدكتور المصري جازماً ، وبوضوح تام ، انها ، ووفقاً لما أقره القانون الدولي ، تدخل في **« النطاق المحفوظ» Reserved Domain** ، لصلاحيات الدولة الداخلية . فقوانين الهجرة والجنسية والتجنيس تبقى محفوظة للدولة وهي غير مقيدة بأي قيد من القانون الدولي. فلا تستطيع الأمم المتحدة ، مجلس الأمن أو الجمعية العمومية ، ان تفرض على لبنان التوطين . كما أن رفض التوطين أصبح نصاً دستورياً ، فلا يمكن تحقيقه بقرار من الحكومة ، أو بقانون من مجلس النواب ، بل يستوجب تعديلاً دستورياً،

أما الجرائم التي أرتكبتها اسرائيل في لبنان ، تجد ، في كتاب الدكتور المصري ، توصيفاً قانونياً دقيقاً ، وهي لا تقتصر على الجرائم الأخيرة ، قانا 1996 و قانا 2006 ، وتدمير البنى التحتية وغيرها من جرائم الإعتداء ، والحرب ، والإبادة ، وإرهاب الدولة ... بل تتناول أيضاً ، جرائم سنة 1948 كمجزرة حولا ، والإعتداء على مطار بيروت الدولي (1968) ، ومجزرة صبرا وشاتيلا (1982) ،وهي جرائم لا تسقط بمرور الزمن ، كما يتطرق الى مسؤولية الدولة التي ارتكبت هذه الجرائم ، والتي مازالت مقتصرة ، حتى الآن ، على مسؤولية التعويض عن الأضرار والإعتذار العلني ، كما يستعرض المراجع الدولية ، القضائية والسياسية ، التي يمكن رفع هذه القضايا اليها.

وبخصوص **المحكمة ذات الطابع الدولي** ، يلقي الدكتور المصري الضوء على تطور القانون الجنائي الدولي بعد الحرب العالمية الثانية ، وكذلك التجارب لإنشاء قضاء ومحاكم دولية ، بحيث تشكل المحكمة المتعلقة بمحاكمة جريمة اغتيال الرئيس الحريري ، مثالاً غير مسبوق في القانون الدولي ، لناحية وصف جريمة الإرهاب بأنها تشكل **« تهديداً للسلام والأمن الدوليين »** ، ولناحية اقرار آلية عملانية لملاحقة هذه الجريمة من جمع المعلومات (لجنة فيتزجيرالد) ، الى التحقيق الدولي ، ومن ثم المحكمة .

وأشير بهذه المناسبة أيضاً الى كتاب قانوني قيم ، صدر حديثاً في لبنان ، باللغة الفرنسية بخصوص القانون الجنائي الدولي وانعكاسه وتداخله مع القانون الجنائي اللبناني ، للقاضي السيدة ماري – دنيز المعوشي طربيه رئيسة محكمة الإستئناف في جبل لبنان – المتن بعنوان : L'internationalisation du Droit Pénal .

وفـي الختـام،

أعيد ما كتبه الدكتور المصري بخصوص القرار 1701 من ان هذا القرار قد أسهم في ارساء

قاعدتين أساسيتين في بناء لبنان : اتفاقية الهدنة واتفاق الطائف ، وأقرّ الالية العملانية العسكرية لضمان الإستقلال والسيادة من خلال تعزيز اليونيفيل ، ويلتقي مع القرار 1757/30/5/2007 ، الذي أقرّ المحكمة الدولية ، ووفر الإلزامية القانونية الذاتية والشاملة لهذا الأمر.

كلمة الأب فادي فاضل

حضرة البروفسور شفيق المصري،

أيها الحضور الكريم،

اسمحوا لي أولاً أن أتوجّه بالشكر للبروفسور المصري للفتته الأكاديمية الحميمة عندما شرفني وطلب مني أن أتكلّم مع ذوي الخبرة الجامعيّة والعلميّة على مؤلَفِهِ الجديد، المولود العلمي الآتي حديثاً الى عالمنا اللبناني المدوَّل.

يندرج هذا البحث الموثق في سياق الأبحاث العلميّة الكتابية السابقة للبروفسور المصري، أكانت هذه الأبحاث نشرت في الكتب أم في مقالاته العلمية في كتبٍ أخرى، أم في مجلاّت متخصصة، لبنانية وعالمية.

لماذا التذكير بهذا الإطار؟

أولاً، للتأكيد على ان المؤلَف الجديد "لبنان والشرعية الدولية" يُشكل بنظرنا مدخلاً محورياً وأساساً في فهم الأحداث والوقائع القانونية الدولية الجديدة في ما يخص المسألة اللبنانية. طبعاً، كل فصل من الفصول السبعة من الكتاب يستأهل مؤلفاً خاصاً به مثلاً: مزارع شبعا، اتفاقية الهدنة، شرعية المقاومة، المحكمة الخاصة بلبنان، القرار 1701، الخ. بيد أننا نرى انه بات لكل باحث في هذه المسائل أن يستند من الآن وصاعداً على مقاربة الدكتور المصري لمجمل هذه المسائل وينطلق منها لتطوير فكره والتعليق على التدابير والإجراءات الدولية.

ثانياً، تجدر الإشارة إلى أنّ قلة من خبراء القانون الدولي قاربوا المواضيع الحالية للمسألة اللبنانية والشرق أوسطية في ضوء تطور دور مجلس الأمن الدولي. فمنذ حرب الخليج الأولى ومنذ أحداث 11 أيلول 2001، دخلت المقاربات السياسية والدولية لمجلس الأمن والخاصة بمنطقة الشرق الأوسط في جيل جديد ودور مركزي لمجلس الأمن في كل الأوضاع التي من شأنها، مباشرة أو غير مباشرة، أن تهدّد السلم والأمن الدَوليين.

فهذا الدور المحوري لمجلس الأمن نستنتجه من القراءة النقدية لكتاب البروفسور المصري ويرتكز على فكرتين أساسيتين:

– من جهة، ان التدابير والإجراءات المعتمدة من قبل مجلس الأمن لها دور في إعادة بناء الدولة المعنية، وعنينا بذلك الدولة اللبنانية، على غرار دور مجلس الأمن في مناطق حارة كأفريقيا وآسيا وأوروبا الشرقية. هذا الدور في إعادة إرساء الأسس العامة للدولة، ألا وهي السيادة والاستقلال وحصرية السلاح، إنما هي تظلل القرارات الخاصة بمجلس الأمن منذ 2004 في الحالة اللبنانية ومنذ العام 2000 في أوروبا الشرقية وأفريقيا. بمعنى آخر، ان التحركات والأدوار التي تلعبها المنظمات الإقليمية والديبلوماسية الحكومية في عملية حفظ السلم والأمن المحليين والدَوليين، إنما تشكّل امتداداً لتدابير سابقة معتمدة لدى مجلس الأمن، أم إنها تمهد لإجراءات ينوي المجلس اتخاذها لاحقاً.

في كل الأحوال، مركزية ومحورية الدور الذي بات يلعبه مجلس الأمن ضمن الجيل الجديد لقراراته منذ التسعينات تؤكّد أن لا بديل عن اضطلاعه الوثيق والحصري في عملية حفظ أو نشر أو فرض السلم والأمن الدَوليين.

– من جهة أخرى، ان السلطة الاستنسابية الخاصة بمجلس الأمن من ناحية توصيف الحالات كتهديد للسلم والامن الدوليين والتي على أساسها يبني قراراته وتدابيره، (هذه السلطة) تطورت بشكل ملحوظ منذ العام 1999 (القرار 1269) وبخاصة بعد أحداث 11 أيلول 2001 وباتت الجرائم الإرهابية تشكل، بحسب مجلس الأمن ووفقاً للقرار 1368، تهديداً للسلم والأمن الدوليين. وبالتالي يسلّم المجلس بالحق الأصيل الفردي أو الجماعي للدول المهددة وعرضة للإرهاب باستعمال القوة للدفاع المشروع بناءً على المادة 51 من شرعة الأمم المتحدة ووفقاً للقرارين 1368 و 1373، دون أن ننسى أن المجلس قد التزم أن يكافح "بكل الوسائل" التهديدات التي يتعرض لها السلم والأمن الدَوليان نتيجة للأعمال الإرهابية.

فهذه المرونة في توصيف الحالات والتي طاولت الحالة اللبنانية كما أشار إليها البروفسور المصري في تحليله القرار 1701 والقرار 1757 الخاص بإقرار المحكمة ذات الطابع الدولي، (هذه المرونة) تتيح لمجلس الأمن وضع اليد من دون منازع ومنافس على الحالات موضوع التوصيف وبالتالي اختيار التدابير اللازمة وفقاً للإرادة السياسية الخاصة بالدول الخمس الدائمة العضوية، وفقاً لمصالحها المشتركة ورؤيتها الاستراتيجية للأوضاع والحالات الراهنة.

أخيراً وللتذكير، نستنتج من كتاب البروفسور المصري، أنه بالرغم من هيمنة الأبعاد السياسية في آلية اعتماد القرارات الدولية وفي مضمونها، إلا أنها، عند تبنيها من قبل مجلس الأمن، تصبح هذه القرارات ملزِمة لجميع الدول الأعضاء بناء على المادة 25 من الشرعة ولجميع الدول إذا ما كانت مبنية على الفصل السابع. فهذه القرارات تدخل عند اعتمادها منظومة القوانين الدولية وتصبح نافذة عموماً وخصوصاً. أما المزايدات السياسية والرهانات على عدم شرعية هذه القرارات أو عدم حجيتها (inopposabilité)، إنما هي مواقف سياسية بعيدة عن المعايير والمبادئ القانونية الدولية، إذاً بلا قيمة حقوقية. وهذا ما يذكرنا به البروفسور المصري في مؤلَفِه الجديد.

في الختام، هنيئاً للحقوقيين والقانونيين بمولود جديد في مكتباتهم "لبنان والشرعية الدولية" يمثّل مدخلاً أساسياً وواضحاً لفهم ومقاربة الحالة في لبنان من الجهة القانونية الدولية، وشكراً أيضاً وأيضاً للبروفسور شفيق المصري لجهوده العلمية التي سمحت بوضع هذا المرجع القانوني الجديد.

وأخيرًا أشكركم جميعاً لإصغائكم وانتباهكم.

كلمة الدكتور سامي سلهب

السلطة بطبيعتها جموح وميل إلى التفلت من القيود والحدود. وقد تتمثل هذه الحدود بسلطة أقوى، منافسة أو مضادة وقد تتمثل بسلطة القانون بوصفه يعبر عن إرادة المجتمع بتنظيم نفسه في إطار دولة فيأتي القانون ليحدد

واجبات المواطن وحقوقه وليضع قواعد السلوك داخل المجتمع في إطار السلوك الفردي والجماعي، والعلاقات بين الأفراد والجماعات، فتكون السيادة للقانون، أي للقواعد العامة التي تنظم حياة المجتمع السياسي. والقانون هو أرقى ما توصلت إليه حضارة البشر ومنه تستمد مختلف الهيئات والمؤسسات، وجودها ومصدر سلطتها وإليه تستند في شرعيتها.

إعتبر البعض أن العمل الدؤوب والمنتظم لوضع قانون دولي وتقنيته وإقناع الدول بالإلتزام به هو بمثابة مهمة مستحيلة. ولكن الأحداث برهنت أن الشعوب التي فجعت بالحروب والتصرفات العاطفية الهوجاء التي تصدر عن الدول تريد أن تضع حداً لها وذلك من خلال الارتباط بالمواثيق والمعاهدات الدولية والتعاون على حفظ الأمن والعيش في ظل سلام دائم.

لذلك بات التعرف إلى القانون الدولي ومبادئه المتجددة أمراً ضرورياً ولا بد منه لكل باحث وطالب وأستاذ ومحام وقاض ليكون مُلِماً بمبادئ وقواعد هذا القانون التي تواكب مسيرة الحياة ومشاكلها فتسمح بإيجاد الحلول التي تتلاءم مع مقتضيات الشعوب والدول والعلاقات الدولية.

ويأتي كتاب الدكتور شفيق المصري، هذا الأستاذ والباحث الجامعي المجتهد ليقدم للمكتبة الحقوقية في لبنان ولكل باحث مرجعاً جديداً في القانون الدولي تحت عنوان "لبنان والشرعية الدولية" ليغطى نقصاً كبيراً في هذا الميدان خاصة وأن لبنان يعيش في خضم التجاذبات السياسية التي أدت إلى إختلاط "التحليل بالتجهيل والتضليل بالنسبة لقضايا مصيرية" مما يقود المجتمع الوطني إلى كوارث تتمثل إما بالفتن والحروب أو تقود إلى تسوية عرجاء تمنع كما يقول المؤلف "الحساب والعقاب وترفع المسؤولية وتبعد النقد الذاتي" المنطلق الأساسي لأية عملية إصلاح وبناء لدولة القانون. وهنا لا بد من التذكير أن الاستقرار السياسي والأمني والإقتصادي والإجتماعي رهن مدى التزامنا بالقانون.

اعتمد المؤلف أسلوباً علمياً ومنهجياً ملفت وبلغة واضحة وبسيطة.

وقد خصص الكاتب فصلاً لكل من القضايا التالية:

1- قضية مزارع شبعا والأراضي المحيطة بها.

2- إتفاقية الهدنة لسنة 1949.

3- المقاومة ورفض التوطين.

4- قانا 1996 – قانا 2006.

5- القرارات الدولية الضامنة لحقوق الدولة اللبنانية.

6- المحكمة ذات الطابع الدولي.

7- شكوى لبنان ضد إسرائيل أمام من؟

عند قراءة هذا الكتاب، من الملفت وجود ترابط وثيق بين كل من هذه القضايا من حيث الوقائع إلى حد ما ولكن خاصة من حيث القانون وذلك من خلال الأحداث التي جرت على الأراضي اللبنانية والقرارات الدولية التي صدرت بشأنها.

يتعرض المؤلف في الفصل الأول لقضية الأراضي اللبنانية التي لا تزال تحت الإحتلال: مزارع شبعا وتلال كفرشوبا وغيرها من الأراضي المحيطة بها إنطلاقاً من ضوابط قانونية دولية تتعلق بحدود إقليم الدولة، وفي هذا الإطار يفند الوسائل السلمية لحل النزاعات الحدودية ووسائل الإثبات المعتمدة في القانون الدولي في هذا المجال. وهنا يركز المؤلف على أهمية النقاط المرتبطة بإثبات هوية هذه المزارع والأراضي المحيطة بها، نذكر منها:

1- أهمية اللجوء إلى إستفتاء السكان أنفسهم في إطار تطبيق حق تقرير المصير للشعب أو إلى سجلات أحوالهم الشخصية أو أملاكهم أو حقوقهم السياسية.

2- أهمية الإعلان الرسمي الوحيد الطرف الصادر والمعلن عن مسؤول في دولة ما والذي يرتب إلتزاماً قانونياً تجاه الدول الأخرى لأنه يرتكز على مبدأ عام للقانون الدولي: مبدأ حسن النية والتعاون. وفي هذا السياق يذكر المؤلف بالتصريحات الرسمية السورية التي أكدت مراراً على الهوية اللبنانية لمزارع شبعا.

3- إجتهادات محكمة العدل الدولية التي ساهمت بترسيخ القاعدة القانونية التقليدية المتعلقة بصيغة "كما تملك سوف تبقى مالكاً" ويخلص المؤلف إلى الإستنتاجات التالية:

أولاً: كانت حدود لبنان وفلسطين واضحة قانوناً منذ سنة 1923 (في زمن الانتداب) ولا تزال رغم غياب أي ترسيم لها لأن الدولة اللبنانية كانت تمارس سيادتها عليها حصرياً ناهيك عن التأكيد على ذلك في دستور لبنان الأول لسنة 1926.

ثانياً: أهمية إتفاق الهدنة لسنة 1949 الذي يتمتع بقيمة قانونية دولية ملزمة لجميع الدول – ومنظمة الأمم المتحدة – والذي ينص على أنْ يتبع خط الهدنة الحدود الدولية بين لبنان وفلسطين (أي لسنة 1923).

ثالثاً: عدة قرارات دولية صادرة عن مجلس الأمن على أثر إجتياحات إسرائيلية بين سنة 1967 وسنة 2006 حيث تم التأكيد في متنها على ضرورة إحترام إتفاق الهدنة.

وفي هذا السياق ربط المؤلف بدقة متناهية بين قضية الأراضي اللبنانية المحتلة حالياً وعملية تنفيذ القرارين

425 و 426 ليستنتج أن الإنسحاب الإسرائيلي لم يتم فعلاً من جميع الأراضي اللبنانية خلافاً لمَ أعلنه الأمين العام للأمم المتحدة في أيار 2000.

واليوم السؤال الذي يطرح نفسه بعد إعتراف الأمم المتحدة بضرورة تحديد هوية مزارع شبعا (راجع الفقرة العاشرة للقرار 1701 تاريخ 11/8/2006) إلى ماذا أدت الجهود الأممية في قضية ترسميها؟؟

ثم يكرس المؤلف الفصل الثاني لدراسة الطبيعة القانونية لاتفاق الهدنة والنتائج المترتبة عنها ويخلص إلى أن قرار وقف إطلاق النار وإلزام أطراف النزاع بإجراء اتفاقية هدنة قد صدر عن مجلس الأمن في 15/تموز 1948 بناء للفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة ومن ثم صادق مجلس الأمن على الاتفاقية بين لبنان وإسرائيل سنة 1949. بذلك يكون مجلس الأمن قد أضفى الطابع الإلزامي على هذه الإتفاقية تجاه جميع الدول ولا يجوز إدخال أي تعديل على جوهرها دون موافقة هذا المجلس ويخلص هنا الكاتب إلى النتائج المترتبة عن هذا الاتفاق وهي:

1- إعتراف إسرائيل الصريح بسيادة لبنان على كامل إقليمه حتى حدوده المعترف بها دولياً.

2- منافع إستمرارية تطبيق الاتفاق المستند على القانون الدولي:

أ- ان موضوع الاتفاقية لا يمس بحقوق الأطراف في التسوية السلمية النهائية.

ب- وجود استرداد الأسرى ومبادلتهم تحت إشراف الأمم المتحدة.

ج- عدم التعرض للمدنيين.

جاءت عدة قرارات لمجلس الأمن بما فيها القرار 1701 لتؤكد استمرارية نفاذ هذه الاتفاقية ومن مصلحة الحكومة اللبنانية بأن لا تسعى إلى أي تعديل من حيث الهيكلية أو الرقعة الجغرافية حفاظاً على الأراضي اللبنانية بحدودها المعترف بها دولياً وبالتالي وجود قوات دولية ضمانة للإعتراف بسيادة لبنان.

ثم ينتقل المؤلف إلى فصل ثالث ليعالج فيه موضوع المقاومة ورفض التوطين ويركز على مبدأ حق تقرير المصير كقاعدة قانونية أتت لتعطي توجيهات جديدة للقانون الدولي التقليدي فيما يتعلق بشرعية المقاومة وحق العودة للاجئين الفلسطينيين وحق الشعب اللبناني في رفض التوطين.

فالمقاومة مستثناة من جميع الحالات التي تتوفر فيها مكوّنات الإرهاب ومشروعيتها مستمدة من عدم تنفيذ القرار 425 أي عدم إنسحاب القوات الإسرائيلية وراء الحدود اللبنانية المعترف بها دولياً.

أما حق الفرد في مغادرة بلده وحقه في العودة إليه فهو مصون بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان والعهد الدولي

للحقوق السياسية والمدنية وأن الطابع الإلزامي للقرار 194 الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة مستمد بالتحديد عن هذا الحق المذكور أعلاه. ثم يوضح المؤلف العلاقة الوثيقة بين النصوص الدولية وإتفاق الطائف والدستور اللبناني الحالي في هذا الشأن مناشداً الحكومة اللبنانية على عدم توفير أي جهد باتجاه المطالبة المستمرة في المحافل الدولية بحق عودة اللاجئين وحق الشعب اللبناني برفض التوطين كي لا تقع في الفخ الإسرائيلي التقليدي المتمثل بالأمر الواقع وذلك في تحقيق مساعيها القديمة الجديدة الهادفة إلى توزيع اللاجئين الفلسطينيين على الدول المضيفة.

وفي الفصل الرابع يبحث المؤلف من خلال التحليل السياسي والقانوني في مجزرتي قانا: قانا 1996 وقانا 2006.

ويعرض في هذا السياق الأسباب المعلنة [مكافحة الإرهاب وحق الدفاع عن النفس] والأسباب الحقيقية [مشروع الشرق الأوسط الجديد، وضع حد للتدخل الإيراني في المنطقة وأسباب سياسية داخلية إسرائيلية] التي دفعت إسرائيل على القيام بعدوانها المبرمج في نيسان 1996 وفي تموز 2006.

ويخلص المؤلف، على الصعيد السياسي، إلى أن لبنان كان ولا يزال ساحة تستخدم لإيصال الرسائل بين التحالف الأميركي – الإسرائيلي والتحالف الإيراني – السوري. ثم ينتقل إلى التحليل القانوني ليبني انتهاكات إسرائيل للقانون الدولي الإنساني بارتكابها جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية على أنواعها خلال حربي نيسان 1996 وتموز 2006، مشدداً على الطابع الإلزامي لقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة 50/22 الصادر في 25/4/1996 خلال جلسة استثنائية (E.S.S) في إطار حفظ الأمن والسلام الدوليين [أي في ميدان يدخل في صلاحية مجلس الأمن والذي تم بموجبه إدانة إسرائيل والتأكيد على إنتهاكها لقواعد القانون الدولي الإنساني وحق لبنان بالمطالبة بالتعويض الملائم وبذلك تميّز موقف الجمعية العامة عن موقف مجلس الأمن الذي اكتفى بالتعبير عن "قلقه" والذي حثّ أطراف النزاع على إحترام القانون الدولي الإنساني.

ثم جاء تفاهم نيسان بأحكامه لينظم الصراع اللبناني الإسرائيلي بعد أن سبقته اتفاقية الهدنة. ويعرض المؤلف في هذا السياق الطبيعة القانونية لهذا التفاهم (معاهدة) والنتائج المترتبة عنه خاصة فيما يتعلق بمشروعية المقاومة في القانون الدولي.

أما الفصل الخامس فجاء تحت عنوان "قرارات دولية ضامنة" وعالج المؤلف من خلاله الطبيعة القانونية لسلسلة من القرارات الدولية الصادرة عن مجلس الأمن وعن الجمعية العامة والضامنة "لاستقلال لبنان السياسي ووحدته الإقليمية ضمن حدوده المعترف بها دولياً" إنطلاقاً من القرارين المتعلقين باتفاقية الهدنة سنة 1949 وصولاً إلى القرار 1701 سنة 2006 مروراً بالقرارات 425 و1559 و1680 على سبيل المثال وليس الحصر.

وقد صدرت هذه القرارات عن مجلس الأمن تارة بناء للفصل السادس وطوراً بناء للفصل السابع وفي هذا السياق

يذكر المؤلف ببعض مواد ميثاق المنظمة التي تنص على أن مجلس الأمن يتخذ قراراته باسم جميع الدول الأعضاء (المادة 24) وأن جميع قرارات مجلس الأمن ملزمة للدول التي تعهدت قبولها وتطبيقها (المادة 25) وقد يقرر مجلس الأمن الانتقال من الفصل السادس إلى الفصل السابع من خلال المادة (39) إذا رفضت دولة ما الالتزام بالقرارات التي صدرت بناء للفصل السادس بما يحتوي الفصل السابع من إمكانية إصدار عقوبات أو حتى إتخاذ تدابير عسكرية.

وبعد أن بينّ المؤلف الأوجه المشتركة بين نص القرارين 1559 و1701 ونص إتفاق الطائف فيما يتعلق بنزع سلاح الميليشيات وبسط سيادة الدولة في منطقة الحدود المعترف بها دولياً، سلّط الضوء على النقاط الملتبسة للقرار 1701 (حق الدفاع عن النفس وشروط ممارسته والوضع القانوني للأسرى والمعتقلين اللبنانيين لدى إسرائيل. ويخلص المؤلف إلى النتيجة التالية:

التأكيد على أن إتفاق الطائف يساهم في بناء الدولة اللبنانية داخلياً وإتفاقية الهدنة تساهم في بنائها دولياً.

ثم يكرّس المؤلف الفصل السادس لدراسة المحكمة ذات الطابع الدولي التي أنشئت بموجب القرار 1757 تاريخ 30/5/2007 الصادر عن مجلس الأمن.

تمت هذه الدراسة في إطار قانوني دقيق إذ إنطلق المؤلف من الأحكام القانونية المتعلقة بالمسؤولية الجنائية الدولية والمعاهدات الدولية ذات الصلة والتي تحدد طبيعة جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية ومن قرارات مجلس الأمن المتعلقة بمكافحة الإرهاب والمراحل التي سبقت إنشاء المحكمة: لجنة تقصي الحقائق ولجنة التحقيق التي أنشئت بناء لقرارات مبنية على الفصل السادس معتمداً في تحليلاته مدى إلزامية القرارات الدولية ذات الصلة خاصة القرار 1757 الذي صدر بناء للفصل السابع وهو بالتالي "قراراً ملزماً ذاتياً بصرف النظر عن موقف الدول حياله" خاصة وأن مجلس الأمن اعتبر الإرهاب بجميع أشكاله من أشد التهديدات على السلم العالمي (إشارة إلى المادة 39 من الميثاق): القرار 1636 في 31/10/2005 الذي عزّز مهام لجنة التحقيق الدولية أيضاً إستناداً إلى الفصل السابع.

ويشير المؤلف إلى أنها المحكمة الأولى التي ستحاكم مرتكبي جرائم إرهابية وقد يصبح نظام المحكمة نموذجاً يقتضى به لإنشاء محاكم مماثلة في المستقبل.

لا شك أن إحقاق العدالة عنصر أساسي من عناصر إستقرار الدولة والمجتمع الدولي. والملفت أن القرار 1757 يؤكد أيضاً، كعدة قرارات سابقة، على "إحترام سيادة لبنان وسلامته الإقليمية واستقلاله تحت السلطة الحصرية للحكومة اللبنانية".

وينهي المؤلف دراسته خلال فصل سابع خصصه للوسائل والآليات القانونية التي تتيح إما للحكومة اللبنانية أو للأفراد المتضررين من الأعمال العدوانية الإسرائيلية مراجعة القضاء الدولي أو القضاء الوطني وحتى مراجعة

مجلس الأمن للمطالبة بالتعويض عن الخسائر البشرية والمادية التي سببتها إسرائيل.

وهنا يسلّط المؤلف الضوء على طبيعة الجرائم التي ارتكبتها إسرائيل إنطلاقاً من القرارات والتقارير الدولية الصادرة عن منظمة الأمم المتحدة والوكالات المتخصصة وغيرها من المنظمات والتي تؤكد بعضها على أحقية هذا التعويض (القرار 262 لسنة 1968 الصادر عن مجلس الأمن وقرارات أخرى صادرة عن الجمعية العامة مذكورة في الفصل المتعلق بالقرارات الدولية الضامنة).

الخاتمة:

إن قيمة أي كتاب هي من قيمة واضعه. فالدكتور شفيق المصري أستاذ جامعي متمرس وتراه من خلال تحليله يتحرى بصبر عن كل قرار أو بيان أو إعلان أو تقرير، يقدم شيئاً جديداً فيدرسه ويعلّق عليه لأنني كما عرفته عاشق علم ولا سيما علم القانون فجاء عمله على قدر المشقة.

لعل أكثر ما يميّز هذا الكتاب أن مؤلفه لم يترك مرجعاً من المراجع الفقهية كما راح يقلب في قرارات منظمة الأمم المتحدة وإجتهادات محكمة العدل الدولية، فأبرز أهم الحلول والقواعد القانونية والمبادئ العامة التي أرستها مما يضفي على هذه الدراسة الصفة العلمية والموضوعية. ولا شك أن هذا الكتاب يشكّل مساهمة قانونية ناجحة في إرساء الأسس التي يجب أن تعتمد عليها الحكومة اللبنانية في أي تحرك في المحافل الدولية دبلوماسياً كان أم قضائياً للدفاع عن القضايا المصيرية اللبنانية.

كلمة الدكتورة مرغريت الحلو

لا بدّ لَمن يقرأ بتمعّن كتاب "لبنان والشرعية الدولية: القضية اللبنانية في المحافل الدولية في ضوء القانون الدولي" للدكتور شفيق المصري من أن يقرّ بالمساهمة العلمية والعملية القيّمة التي يقدّمها هذا المؤلَّف.

تتجلّى الأهمية العلمية لهذا الكتاب أولاً في كونه يساهم في إغناء المكتبة العربية بدراسة تحليلية قانونية بأسلوبٍ علمي وموضوعي لمواضيع حسّاسة ومصيرية، قلّما تمّت مقاربتها بتجرّد إنْ في الأدب العربي أو الأجنبي المنشور حولها.

وبالتالي يَصلُح هذا المؤلَّف مرجعاً مهماً في التدريس الجامعي في مواد القانون الدولي، المنظمات الدولية، الصراع العربي – الإسرائيلي، سياسة لبنان الخارجية وغيرها.

وتتجلّى أهمية الكتاب العلمية ثانياً في ما يقدّمه من أمثلة وتمرين علمي ومنهجي لكل من الطالب والباحث والسياسي الممارس في التحليل واستخلاص الحجج الدامغة والبراهين القانونية بأسلوب منطقي لدعم مطلب أو

موقف معينّ في المحافل الدولية.

كذلك، تتجلّى أهمية الكتاب العلمية في البحث المستفيض حيناً، والمختصر أحياناً، في الصعوبات التي تواجه المجتمع الدولي لدى محاولته تعريف وتحديد المفاهيم والإشكاليات الأساسية لوضع المبادئ والقواعد القانونية التي تحكم العلاقات بين الدول، وأثر هذا على عمل الأمم المتحدة وأجهزتها في التعاطي مع النزاعات القائمة ليس فقط بين لبنان وإسرائيل بل في مناطق أخرى من العالم بشكلٍ يضمن ردع المعتدي ومعاقبته وتكريس الأمن والاستقرار داخل الدول وعلى حدودها.

أما الأهمية العملية للكتاب، فنجدها في محاولة الكاتب ترشيد القرار السياسي عبر تقييمه لنقاط الضعف والقوة في تعاطي السلطات اللبنانية مع القرارات الصادرة عن الأمم المتحدة وفشلها أحياناً في استغلال كامل الإمكانيات والفرص المُتاحة لتعزيز حججها القانونية ودعم مطالبها بالاستناد إلى مبادئ القانون الدولي وقواعده، وبخاصة الآمرة منها، أو بالاستناد إلى بنودٍ وردت في القرارات الدولية حول الصراع اللبناني – الإسرائيلي.

وبالتالي، نجد أنّ هذا الكتاب قد يصلح كدليل للذين يقومون بتحضير الملفات والاستشارات ويصيغون المطالب والشكاوى التي يتقدّم بها لبنان إلى الأمم المتحدة وأجهزتها.

"اللهم إن كانوا يقرأون"

وأنتقل الآن إلى بحث بعض النقاط التفصيلية التي عرض لها الدكتور مصري في كتابه، والتي تقتضي التعليق والتوضيح.

أولى هذه النقاط تتعلّق بما ورد في الفصل الأول الذي يعالج وضع مزارع شبعا حول كون "الإعلان الرسمي من جانبٍ واحدٍ يشكل موجباً قانونياً... أي أنّ أي إقرار مُعلَن من قِبَل مسؤول في دولةٍ ما يرتّب التزاماً قانونياً حيال الدولة أو الدول الأخرى المعنيّة به". وهذا يعني أنّ إقرار كبار المسؤولين السوريين علناً بلبنانية مزارع شبعا كافٍ بحدّ ذاته لتثبيت هوية هذه المزارع، وبالتالي يظهر أنّ المطالبة الدولية بإقرار خطّي من قِبَل الحكومة السورية بكون المزارع لبنانية أمرٌ غير ضروري لنقض ادعاءات إسرائيل ومحاولاتها إدخال هذه المزارع تحت مظلة القرار 242. وهذا ما لم تحاول الحكومة اللبنانية التركيز عليه. وهنا، كنتُ أتمنى لو ضمّن الكاتب صفحات هذا الفصل أمثلة أخرى من قضايا عرضت على المحكمة الدائمة للعدل ووريثتها محكمة العدل الدولية والتي تؤكّد عدم الحاجة إلى إقرار خطي في حال توفّر الإقرار الشفهي العلني من قِبَل المسؤولين في الدولة المعنيّة.

مثلاً :

Temple of Preah Vihear Case: Cambodia vs Thaliland, 1962, ICJ rep.6.

وتطرح معالجة الكاتب الدقيقة لموضوع مزارع شبعا من وجهة نظر القانون الدولي سؤالَين أساسيَين، الأول يتعلق بالأسباب الفعلية وراء الإهمال الحاصل من قِبَل الحكومة لهكذا موضوع مهم ويتعلّق الثاني بالأسباب الفعلية وراء إصرار القوى الدولية على الاستمرار في التمييز بالتعاطي مع إسرائيل من جهة والعرب من جهةٍ أخرى.

أما النقطة الثانية والتي عرض لها الكاتب في الفصل الثالث حول المقاومة ورفض التوطين فهي تلك المتعلقة بتعريف مفهومَي المقاومة والإرهاب.

إذ من الواضح للمراقب أنّ التعاريف والتصنيفات المقترحة في محاولة للفصل بين المفهومَين كانت ولا تزال موضع جدل سياسي وقانوني في آن. فرغم أنّ مقاربة الكاتب للموضوع هي مقاربة قانونية، لا بدّ وأن يطرح السؤال حول إمكانية فصل السياسة عن القانون وجدواها. فحتى إن أمكن الفصل على مستوى التعريف وحصل التوافق على تعريف موحّد ومقبول عالمياً لكل من هذَين المفهومَين إلا أننا نرى أنّ عملية التصنيف الفعلي للجماعات والأفعال تحت كل من هاتَين الخانتَين كانت وستبقى عملية سياسية بامتياز في ظلّ تضارب مصالح وسياسات الدول.

كذلك رغم أنّ بعض الأحكام القانونية الدولية قد حرصت منذ الأربعينات، كما أشار الكاتب، على تشريع "المقاومة الوطنية" كأداة فاعلة لممارسة الحق في تقرير المصير ومكافحة الاستعمار واستثناؤها (أي المقاومة الوطنية) من الحالات الأخرى المحظورة للإرهاب الدولي..." لا بدّ وأن نطرح هنا سؤالَين حول هذا الموضوع.

أولاً، ما هو مفهوم "الحدود الوطنية" اليوم خاصةً في ظلّ التقدّم في مجالَي التكنولوجيا والمواصلات الذي يشهده العالم وما يتيحه من إمكانات تنسيق وتعاون بين "مقاومات وطنية" في بقاعٍ مختلفة وتنقل مجاهديهم من منطقةٍ إلى أخرى.

وثانياً، هل تبقى "المقاومة الوطنية" وطنية عندما تعلن أنّ أهدافها التحريرية تتخطّى الحدود الجغرافية للوطن كما هو حاصل في وضع المقاومة في لبنان؟

وفي الإطار نفسه يشير الدكتور مصري إلى "ضرورة الانتباه إلى إطارَين محظورَين من الإرهاب الدولي: إرهاب الدولة وإرهاب الأفراد... وبالتالي عدم السماح لبعض المقولات التعميمية التي لا تلحظ هذا التمييز وإنما تدعو إلى إدانة الإرهاب ومكافحته بصرف النظر عن أصنافه وبواعثه ومظاهره ووسائله. وهكذا يُصار في بعض الحالات إلى الخلط القانوني بين ما هو محظور ومُدان (أي الإرهاب) وبين ما هو مشروع وقانوني أي المقاومة".

برأيي أنّ التحذير الذي يطلقه الكاتب في محله كما هي الدعوة التي يتقدّم بها حول ضرورة التعرّف على الأحكام القانونية الدولية المتعلقة بموضوعَي المقاومة والإرهاب.

إلا أنني أعتقد أنّ التمييز لا يجب أن ينحصر بين هذَين النوعَين من الإرهاب أي إرهاب الدولة وإرهاب الأفراد، بل يجب أن يشمل أيضاً وفي ظل المعطيات اليوم، نوعاً ثالثاً ألا وهو إرهاب الجماعات التي ليست بافرادٍ وليست بدولٍ بل تتّخذ أشكال تنظيماتٍ وأحزابٍ كالقاعدة وفتح الإسلام وغيرها من التنظيمات الدينية وغير الدينية المتواجدة في بقاعٍ أخرى من العالم. وهنا، اسمحوا لي بأن أطرح سؤالاً آخراً يتعلّق بمدى سهولة التصنيف تحت هذه الخانات الثلاث. ولعلّ في المثل التالي توضيحاً لتعقيدات عملية التصنيف هذه. فعندما تُشَرِّع حكومةٌ ما وجود حزب أو تنظيم بعد أن أخذت "العلم والخبر" واستحصلت على نصّ لقانونه الأساسي، وبعد أن أعلن مسؤولو هذا التنظيم عدم اعترافهم بالدولة ونظامها ودستورها ونيّتهم في تغيير هذا، وعندما يقوم أفراد هذا التنظيم بأعمالٍ عدائية وعسكرية ضد البلد وشعبه وجيشه، فهل من الممكن أن يتمّ تصنيف هذه الأعمال تحت خانة إرهاب الأفراد، مقاومة وطنية للتحرّر من بقايا نظام استعماري أم تحت خانة إرهاب الحكومات؟

ورد في الفصل الخامس تحت عنوان قرارات دولية ضامنة أنّ الهدنة بين لبنان وإسرائيل وفّرت "ضماناً دولياً لاتفاقية ثنائية أصلاً تضمّنت اعترافاً إسرائيلياً خطياً بحدود لبنان الدولية والتزاماً إسرائيلياً أيضاً باحترامها".

برأيي إنّ هذا النص ينطوي على بعض المحاذير. فإذا كانت الهدنة ضمنت اعترافاً إسرائيلياً بحدود لبنان والتزاماً باحترامها ألا تنطبق الالتزامات والاعترافات ذاتها على لبنان من وجهة نظر القانوني الدولي؟ وإذا كان هذا هو الحال، ألا يعتبر سماح لبنان للمقاومتَين الفلسطينية واللبنانية بالقيام بعملبات عبر الحدود اللبنانية ضد إسرائيل إخلالاً من قِبَل لبنان بالتزاماته، وبالتالي خرقاً للهدنة؟؟

وهنا أعتقد أنه من الأسلم أن لا نتوسّع في مفاعيل اتفاقية الهدنة بحثاً عن ضمانات للبنان، بل نبقيها في إطارها الضيّق أي مجرّد اتفاق لوقف العمليات العسكرية دون أن يكون له أثر في المطالب السياسية للفرقاء.

من النقاط الأخرى التي تستدعي الانتباه في الفصل السادس هو ما ورد حول الاتفاقية الدولية الصادرة بتاريخ 26/11/1968 والتي تقضي بعدم تقادم الجرائم التي تخالف القانون الدولي ومنها جرائم الحرب والجرائم المرتكبة ضد الإنسانية وجرائم الإبادة وجرائم الفصل العنصري وجرائم الطرد والاعتداء المسلّح الخ... وأنّ مرتكبي هذه الجرائم لا يستفيدون من إمكانيات العفو حتى وإن كان هذا العفو صادراً عن دولتهم.

وهنا لا بدّ وأن أشكر الدكتور مصري على الاستفاضة في تفسير وتوضيح هذا الموضوع، وبلغةٍ واضحة وسهلة، علّ هذا الكتاب يساهم في توعية اللبنانيين عامةً وطلاب الجامعات خاصةً حول إمكانية مساءلة ومحاسبة مَن مارس هذه الجرائم على الأرض اللبنانية (أكانوا من الداخل أو الخارج) وعلّه يساهم في ردع مَن يحاول إعادة الكرة اليوم من القيّمين وغير القيّمين على شؤون البلد وشعبه.

وأخيراً، لا بدّ وأن يلاحظ القارئ تركيز الكاتب على المواضيع التي تتعلّق بالعلاقات الإسرائيلية اللبنانية وبخاصة بما اقترفته وتقترفه إسرائيل في لبنان، وليس في هذا أية شائبة. إلا أنني كنتُ أتمنى، واستناداً إلى العنوان الذي يحمله الكتاب، عدم حصر القضية اللبنانية بالنزاع مع إسرائيل، أي أن تضمّن الكتاب أيضاً تطبيقاً لجميع هذه البنود والمبادئ القانونية على أعمال الغير في لبنان خلال العقود الثلاثة الماضية والتي كانت موضوع قراراتٍ دولية وإقليمية، فكما أظهر العرض الدقيق أنّ المقوّمات والخصائص التي اعتمدت في تصنيف الأعمال الإسرائيلية في لبنان متوفرة في أعمالٍ قامت بها جماعات من الداخل والخارج في لبنان منذ 1975 حتى اليوم. ولذا نسأل ألا تزيد المقارنة بين هذه الأعمال من قِبَل أطرافٍ مختلفة وطُرُق التعامل الدولي معها في فتراتٍ مختلفة في قيمة هذا الكتاب العلمية وتزيد في موضوعيته؟

كذلك، يظهر العرض والتحليل لمختلف المسائل التي يعالجها الكتاب عدم الافتقار، أقلّه بشكلٍ عام، إلى القرارات والمبادئ القانونية الدولية الضامنة لاستقلال وسيادة ووحدة أراضي لبنان، إنما الافتقار إلى تطبيق صحيح لهذه المبادئ والقرارات والعمل على ضمان عدم انحياز المجموعة الدولية لمصلحة إسرائيل على حساب لبنان بسبب الضغوط على المنظمة الدولية والصعوبات التي تواجهها عندما يتعلّق الأمر بإسرائيل.

ونختم هنا بإضافة رأينا الخاص وهو إنه، وإلى جانب الحاجة إلى مصداقية الدول معنا، يبدو أننا نفتقر اليوم وأكثر من أي وقتٍ مضى، إلى وجود طبقةٍ سياسية لبنانية تعمل على بناء وحدتها ضد الخارج أياً كان ومهما كانت خلافاتها الداخلية كما تعمل على تعزيز الوحدة الوطنية للحافظ على هذا الاستقلال والسيادة وإجبار المجتمع الدولي على معاملتها كدولة سيدة متساوية في الحقوق والواجبات مع غيرها من الدول.

كلمة الدكتور شفيق المصري

علاقتي مع هذا المنبر وطيدة وجريئة: وطيدة بقدر ما يجمعني مع أركانه من وشائج الصداقة والمحبة، وجريئة بقدر ما يضعني (هذا المنبر) أمام الامتحان– التحدي: اذا كنتَ تزعم إخلاصاً للوطن، وموضوعية في البحث، وجرأة في التصدّي للمسائل المصيرية تعال وبرهن ذلك امام هذا الجمهور المدقق والمحقق. ولطالما سعدتُ بهذا الامتحان – التحدي منذ التسعينات وحتى اللحظة. لذلك أقدّم للقيمين على هذه الحركة الثقافية وافر التقدير والمحبة والامتنان كما أتوجه لحضرتكم بالشكر والتحية.

أشكر أولاً رئيس هذه الندوة وكافة المنتدين فيها جزيل الشكر على ما تفضلوا به من ملاحظات قيّمة وعلى ما بذلوه من وقت وجهد من اجل ذلك.

أما بالنسبة للكتاب فاسمحوا لي، بقدر الوقت الممنوح لي، ان أشير باختصار الى النقاط التالية:

1. كان لا بد لي، بعد مرور عقدين او أكثر قليلاً من التدريس والندوات والمحاضرات والمقابلات المتمحورة كلها تقريباً حول القانون الدولي والمنظمات والعلاقات الدولية، أن أقوم بما تمليه علي مسؤوليتي الأكاديمية، والوطنية بآن معاً. أي ان أدعو الى العقل والانتظام في حمّى هذه التجاذبات القائمة وأشرح بعض الحالات الدراسية في ضوء القانون الدولي بعيداً من كل رأي غير موضوعي وكلّ موقف غير ذي جذور.

2. وقد عزمت في هذا السياق أيضاً ان التزم إعداد سلسلة من هذه الدراسات – ويشكل هذا الكتاب الحلقة الأولى منها– التي تتناول قضايا شرق أوسطية أخرى في ضوء القانون الدولي. ومنها ما يتعلق بمسألة الإرهاب الدولي ومسألة الدولة الفلسطينية والشرق الاوسط بين الاعتبارات الجيوسياسية والانتظام الدولي وغيرها. وانا أزعم ان هذا الكتاب في تصميمه واسلوب التحليل فيه وفق القانون الدولي، وأهدافه سيشكل نموذجاً للحلقات اللاحقة من هذه السلسلة.

3. اخترت في هذا الكتاب سبعة فصول تشكل، في رأيي، النقاط الساخنة التي تتجاذبها النقاشات وفي غالب الأحيان المهاترات السياسية من دون الاعتماد على اية منهجية علمية ولا الاستناد الى اية مرجعية قانونية.

وهذه الفصول السبعة: لبنانية مزارع شبعا، واتفاقية الهدنة، وقانا 1996، قانا 2006، وحق الشعب في المقاومة ورفض التوطين والقرارات الدولية الضامنة، والمحكمة ذات الطابع الدولي، وشكوى لبنان...

وحاولت لدى معالجة كل من هذه الفصول او الحالات الدراسية ان اعتمد الأسلوب الأكاديمي – القانوني من اجل إثبات هوية او ذكر مرجعية او تحديد ضمانة او تجريم عدو او إقرار مبدأ يتمحور حول العدالة الجنائية الدولية.

4. انا أزعم ان هذا الكتاب يشكل (أو أن هذا ما حاولت على كل حال) دليلاً قانونياً مختصراً لإيضاح أو لتحديد أي من هذه الفصول – المسائل. كما ازعم (أو أن هذا ما آمل به) أن يكون أيضاً مفيداً للدبلوماسية اللبنانية في شرح بعض الأمور أو ذكر طبيعتها ومفاصلها ونتائجها ايضاً، بصرف النظر عن المواقف المتباينة التي تتناول الأمور، في الداخل وبعض الخارج، بتفسيرات كيفية او تعسفية او شارعية في بعض الأحيان.

وبعد،

عودة إلى هذا المنبر الذي كنتم شهوداً على ما يقدّم من أصوات وندوات تخضع كلها، كما قدمت، إلى الامتحان التحدي. والآن يتناول الموضوع الأكاديمي في القانون الدولي وبعض الحالات الدراسية الخاضعة له. وقد سبق للزملاء المنتدين الكرام، وأكرر شكري الجزيل لهم ان تفضلوا بآرائهم وملاحظاتهم القيّمة. يبقى من حق التعليقات

أو الملاحظات المفيدة أيضاً.

مع الشكر لإصغائكم

تكريم اعلام الثقافة في لبنان والعالم العربي

تكريم عزت صافي

كلمة المحامي هيكل درغام

كلمة عصام كرم

كلمة عزت صافي

كلمة المحامي هيكل درغام

أيها الأصدقاء،

في هذا المساء الثقافي يسعدنا ان نستضيف اليوم في ربوع الحركة الثقافية – انطلياس الصحافي عزت صافي صاحب السيرة الفزة والباع الطويل في مسيرة حياته الصحافية.

"ليس في سيرتي غير صحافة، وورق، وحبر، وسهر، وتعب، وليس غير أمل الاحقة مثل سر، او خبر وغير ثقافة هي من معاناتي، وتجاربي في الصحافة ومن اختباراتي وعلاقاتي مع الناس".

عزت صافي قطع مسافة 58 عاماً من العمل المتواصل في الصحافة، جريدة الانباء، **مدير تحرير جريدة الكفاح، مدير تحرير، في جريدة الانوار، رئيس تحرير مجلة الصياد، كاتب مقال سياسي في جريدة الانوار، كاتب مقال سياسي في جريدة السفير، مديراً "لمجلة الحوادث"**، عضو المجلس الأعلى لاتحاد الصحافة اللبنانية استاذ في معهد الاعلام في الجامعة اللبنانية،

كان فخوراً ومعتزاً بانتسابه الى هذه المهنة الأكثر انتقائية بين المهن...

"تابعت مهنة الصحافة وليس لي فيها ولا بعدها مهنة:

وهنا يتمايز بعض الشيء مع رأي الصحافي الكبير غسان التويني القائل: "بعد خمسين عاماً ينتابني شعور ليس هو الندم لأني صحافي بل القهر لأني لم اصبح إلا صحافياً"

علمنا لم يرث هذه المهنة، يقول "نجاح رسالتي هو استمراري وسعي الدائمين للتكيف فيها ليس رغم القهر فقط بل مع المعاناة، لم يكن له حياة ولا مقام ولا عمل ولا عطلة، إلا في مكتب جريدة الانباء"

سلك دروب الصحافة ايام كانت الصحافة هي السلطة الرابعة في الدولة عمل في جميع مجالاتها صف الاحرف، الطبع، التصحيح، تصحيح المقالات، تصحيح البروفات، تحرير، وسكرتير تحرير مدير ورئيس تحرير.

انه صحافي عن سابق تصور وتصميم انه هذا العصامي الذي يقول عنه الاستاذ منح الصلح "يفاخر بأنه هو من بنى نجاحه او شهرته لنفسه": لقب بأبن المختارة لأنه ولد في منزل في نطاق حرم دار المختارة، وفي السنة الأولى من عمره امسكاه والداه بيديه ليعلماه المشي سارا به الى دار المختارة فالتصق منذ اللحظة الأولى من حياته بها. وترسخ خط التواصل هذا في مسيرته لم يخرج من بيئته بقي وفياً لهذه المبادئ والقيم طوال حياته الى ان وضع كتاب **"طريق المختارة"**.

ولد في زمن عز عائلي في بلدة المختارة، وفي منزل عريق بطرزه المعماري في نطاق حرم دارة المختارة كان والده يستثمر في المختارة متجراً لبيع قطع الموبيليا الفاخرة. "زمن العزّ لم يدم، فقد "انكسر والدي وسدد قيمة خسارته بثمن حقل كبير كنا نسميه العودة، كان لنا مصدر رزق وغلال من المواسم..."

غادرت العائلة الى الضيعة باتر المدرسة الاولى المعلم فريد عزام... لم ابدل مقعدي على البنك الخشبي في المدرسة ذات المعلم الواحد والباب الواحد والشباك الواحد والمتعدد الصفوف...

انهى صفوف المرحلة الابتدائية سريعاً كان عليه ان يبقى في مدرسة الضيعة الى ان جاء معلم من بلدة

عماطور لعله من اوائل الشيوعيين في الشوف. يقول: "اذا كانت الفروض الى المعلم فريد بلغة الادب، والنحو، والقواعد، فان الفروض الى المعلم اليساري كانت بلغة الثورة على الاستعمار والاقطاع والظلم والفقر...

حمل لغته وفكره اليسارين الى الحزب التقدمي الاشتراكي: عمل في جريدة النداء وفي مطبعتها اكتشف ان الصحافة كانت تبدأ في المطبعة كان عليه ان يقرأ المقلات والافتتاحيات والتعليقات مقالات كتاب السياسة، والثقافة، والفن، والاقتصاد، والرياضة ومقالات الفضاء فضلاً عن الاخبار المحلية والعربية والعالمية... "تلك مدرسة خرجت للصحافة اللبنانية والعربية اعلاماً تركوا للصحافة الحديثة الاسماء وقواعد وقيم المهنة واخلاقها.

"اني افخر بأني وجدت زاوية في تلك المدرسة وحصلت فيها على شهادتي، ولم استطع ان اضيف اليها شهادة اخرى".

عام 1974 طلبت منه رئاسة الجامعة اللبنانية ان يشارك في تدريس طلبة كلية الصحافة والاعلام للسنة الرابعة فوافق.

في الساعة الأولى من اليوم الأول له في الجامعة وقف خلف منبر كلية الصحافة والاعلام وراح يتطلع في وجه كل طالب وقال لهم كم اتمنى في هذه اللحظات لو استطيع ان انقل اليكم الاحساس الذي يهزني في العمق وانا واقف امامكم الآن عشت شبابي ولم اتمكن من الوصول الى الجامعة للجلوس في مقاعدكم. لكن بعد خمس وعشرين سنة ها انا الآن في مقعد الاستاذ امامكم.

كان احد الصحافيين الذين رافقوا الرئيس شارل حلو في اول زيارة له الى القاهرة ايار 1965 وتيسر له لقاء سريع مع الرئيس جمال عبد الناصر ورافق أيضاً الرئيس حلو الى باريس للقاء الرئيس شارل ديغول وتيسر له حضور حفلة الاوبرا في مقصورة بالقرب من مقصورة الرئيسين ديغول والحلو.

تابع معظم مؤتمرات القمم العربية.

بعد نشوب حرب اكتوبر 1973 كان اول صحافي ينزل في مطار عسكري في القاهرة بعد ان غادر مطار بيروت بطائرة نقل سوفياتية كانت آتية من موسكو وكانت تحمل شحنات ادوية الى مصر صعد الى الطائرة بصفة ممرض.

كان احد اربعة صحافيين لبنانيين سمح لهم بمتابعة اول مؤتمر للحوار العربي الاسرائيلي عقد في جنيف في كانون الاول 1973 بحضور وزيري خارجية اميركا والاتحاد السوفياتي ومقاطعة سوريا.

حضر والمرحوم ميشال ابو جودة مؤتمراً صحافياً دولياً دعا اليه ملك المغرب في الرباط. 1977. آثر حواراً مع الملك حول الوضع اللبناني قاطعه الملك قائلاً له انت تحاورني من مسافة نحو اربعة آلاف كيلومتر.

بالاضافة الى المناصب الثقافية والمهنية التي تبؤها، الف كتاب بعنوان طريق المختارة زمن كمال جنبلاط كان دافعه الى ذلك اكتشافه بأن وقت النشر قد حان بعد ان ادرك انه استراح من المستقبل فانصرف الى الماضي. ففي هذا الكتاب يلقي فيه على مسيرة المعلم اضواء غير مسبوقة بامانة صحافية عالية واسلوب تاريخي ممتع ويقر ان كمال جنبلاط نموذج من الساسة اللبنانيين المميزين والذين جمع في شخصه مختلف الشروط القيادية والسياسية والفكرية والروحية. واني ارى من المفيد ان نذكر بعض ما قاله كمال جنبلاط عن الكيان اللبناني:

"ان الكيان اللبناني رغم العواصف التي تمر به يتأكد ويتثبت في ازدياد مضطرد وعلى الدوام في بصيرة جميع اللبنانيين وقد يدركون يوماً أكثر مما يدركون الآن انهم اولاً أبناء هذه الوحدة الحياتية وحدة الاقتصاد والاجتماع وتشابك البيئة. قبل ان يكونوا نصارى وسنة ودروزاً وشيعة وسواها من المذاهب.

لبنان السياسي قائم على هذا التنوع الغريب العجيب لبنان في الحقيقة محاولة تأليف ضخمة ومحاولة تعاون وانسجام بين النصرانية والاسلام وجميع المذاهب هو نموذج معد لمنطقة العالم العربي بل للشرق الاوسط كله. لبنان وجد لكي يكون بلد العقل بلد العقلانية ولولاهما لما وجد هذا الوطن ان وظيفة لبنان في الشرق الاوسط ان يكون وطن التقدم والحرية راهن كمال جنبلاط على استقلال لبنان الى اقصى حد حتى ليتمكن اعتباره فيلسوف الصيغة اللبنانية بلا منازع هذه الصيغة التي اعتبرها انتصاراً للحضارة العربية. للحضارة العربية فاكراماً لروح هذا القائد وتجسيداً لانتصار الصيغة اللبنانية لا بد من انهاء ملف المهجرين من كل جوانبه الانسانية والمالية والعملية.

يشرفنا في الحركة الثقافية – انطلياس ان يشارك معنا نقيب المحامين الأسبق عصام كرم في تكريم عزت صافي كعلم ثقافي في لبنان الرعيل 23. ويزداد تشرفنا عندما نرى ابن دير القمر وابن باتر البلدتين الشوفيتين يجلسان سوية على منبر الحركة الثقافية في انطلياس عاصمة العاميتين يتفاعلان ثقافياً في تظاهرة المهرجان اللبناني للكتاب الذي اردناه واحة لقاء ومنبر حوار حر ملتزم بحرية الكلمة وقدسيتها في خدمة السلم والسلام وحقوق الانسان في وطننا لبنان.

النقيب كرم، صاحب شخصية فزة متنورة ومقتدرة، مارس مهنة المحاماة منذ عام 1958 حتى يومنا هذا دون انقطاع.

تدرج في مكتب الاستاذ النقيب ميشال عقل.

سنة 1961 استقل مكتبه بالمحاماة متخصصاً في الشأن الجزائي.

سنة 1972 انتخب عضواً في مجلس النقابة وتعاقب على هذا المركز مرات عديدة الى ان انتخب نقيباً للمحامين 1983.

كتب في الصحافة منذ كان تلميذاً.

انقطع عن الكتابة السياسية منذ انتخابه نقيباً للمحامين ايماناً منه بابقاء مركز نقيب المحامين بعيداً عن التجاذبات السياسية.

النقيب عصام كرم يتمتع بثقافة واسعة تشمل شتى اوجه المعرفة اهمها الثقافة القانونية، لا مجال لخوض غمارها الليلة لكثرة تنوعها ولفرادتها واظنه يعذرنا اذا مارسنا فضيلة الاختصار في هذا الحفل التكريمي الجلل.

النقيب كرم هو من عداد اعلام الثقافة في لبنان ينتمي الى صفوة من المثقفين المؤمنين بالكلمة وبالحق والحرية انه من المثقفين الحقيقين الذين يلتزمون العدل والمحبة، ثقافته الحقة وليدة فكره الخلاق القائم على الايمان والمحبة والرجاء والانفتاح والتسامح.

ألكاتب الرصين الظريف

كلمة عصام كرم

أُحييّ " الحركة الثقافية " لأنها جامعة فكر . وأُحييّ أنطلياس لأنها جامعة وطنية . وأُحييّ الرهبنة الأنطونية لأنها جامعة علم وانفتاح .

ألحركة الثقافية ، منذ كانت ، غلّبت الفكر على المحسوس . وألّفت بين المرئي والراهن . بين الحقيقي والمنظور . بين الجميل والصحيح ، في عصر يمشي الإرهاب والتقنية على دعسة الإنحلاليين ... فيُمسي المستقبل ضبابيا" ، هيولانيا" ، غير واضح . مع أن علينا ... نحن ، أبناء هذا العصر ... أن نناهز أُفقا" أبعد من التاريخ

وأعرض من الرؤيا ... بحيث يتمازج الرائع والوضعي ... كما في كلام لـ بول فاليري .

في هذا المناخ الأنيق ، تراني أذهب إلى سؤالين .

ألأول : لماذا لا يكون لنا كتاب عربي يكمّل " أغاني " أبي الفرج ؟

ألثاني : لماذا تذكر معاجمنا أعلام الغرب وتخلو معاجم الغرب من ذكر معظم أعلامنا؟

أُمنيتان أستودعهما الحركة الألقة بندين بارزين في جدول الأعمال .

* * *

عزّت صافي حَلِم بالقلم . ولما صار قادرا" على حَمْله ، فعل صادقا" ثائرا" متمرّدا" . صادق كما الطبيعة تُطلع الشوك والورد . ثائر ثورة العقل ، لا ثورة الفوضى . متمرّد تمرّد العنفوان ، لا تمرّد العصيان ...

في الصحافة تدرّج حتى بلغ المستوى الأنيق . فملأ الصحف مقالات لا يترك لصحيفة أن تعتب عليه ... يجول الجولة المتعافية يربط الماضي بالحاضر رائيا" المستقبل كمثل من عرف بأن الماضي يُقرأ في صفحات الرخام مثلما يُقرأ في صفحات الورق منذ كان غوتنبرغ ... وكانت المطبعة تطلّ على المعتقد والعقيدة ... وكلاهما يتهيّبان الرأي الطالع من التحرّك الشعبي . لأن التحرّك الشعبي ، أيا" كان سببه ، يُطلع نسيم التحرّر ويُطلق روح الـ لا الهادمة البانية .

عزّت وأنا رفيقا درب ورفيقا قناعات . في " شيطنة " الصبا كنا في الحركة الطالبية نرفض الحالة الراهنة في صبوة منا إلى الأفضل . وفي صخب الشباب أدركنا ، كلانا ، أن مناقبية الجبل أكبر من أن تهون . وساعات التخلّي ليست التاريخ . ألتاريخ ثورة على ساعات التخلّي وكفر بالدعسات الناقصة .

هذا الشُّوفي من أهلنا الموحِّدين ... بني معروف ... قاتل من أجل وحدة الجبل مدركا" أن

التوحُّد المسيحي الدرزي هو المنطلق إلى مصافحة كلّ اللبنانيين مع كلّ اللبنانيين مصافحة قناعة إيمانية بأن من الحرام أن يقتتل اللبناني واللبناني في وطن فخر الدين ... وحدود لبنان أول أيلول 1920 هي حدود فخر الدين.

يعد معركة عين داره في 1711 هاجر اليمنيون المنهزمون إلى جبل الدروز ... جبل العرب كما الشوف جبل العرب . ألقيسيون ... المنتصرون ... عادوا إلى قراهم ينقسمون بين يزبكيين وجنبلاطيين . ويوم كان تقسيم الجبل باقتراح من ميتيرنخ ، مستشار النمسا ، كانت القائمقاميتان . في قائمقامية الدروز كان يأتي القائمقام يزبكيا" مرة وجنبلاطيا" مرة . وطلع الخبر ، في مناسبة إنتخابية ، أن اليزبكي فاز . فتجمعت اليزبكية تذهب إلى بيت الدِّين للتهنئة . في الطريق طلع الخبر الآخر ... أن الجنبلاطي صار قائمقاما" . فالتفت القوم بعضهم إلى بعضهم يقولون الكلمة الشهيرة : أبقاش بدا، قوموا تنهنّي .

عزّت يعرف تاريخ لبنان . ويعرف أن جبل لبنان ركيزة وطنية بالعيش الدرزي المسيحي . في انتخابات 1960 فازت في الشوف اللائحة التي كان يرئسها كمال جنبلاط . وكان فؤاد شهاب رئيسا" على الجمهورية . فألّف جنبلاط وفدا" من " الحبهة الإشتراكية الوطنية " يزور فؤاد شهاب حاملا" إليه علم فخر الدين هَديّة" . فسأل الناس : ألجنبلاطي الذاهب إلى الشهابي ، على ما في علاقة الجدّين من إحَن ، يحمل إليه علم فخر الدين ... يعني ماذا ؟ يومذاك ... قلنا إن الزيارة ليست زيارة الجنبلاطي للشهابي . هي زيارة الدرزي للماروني . وعلم فخر الدين للتذكير : مثلما دعا المعني الثاني الموارنة لمشاركته في حكم الجبل ، يصير على الماروني موجب ردّ الأمانات .

* * *

في كلّ فنّ كتب عزّت صافي . فكر محيط راق . ومعرفة . وسعة أُفق .ولغة عرفها وسيلة خلق وتوالُد عبارات . من هنا ... أن الريشة ما جمد ت يوما" في يده . هي ، في يده ، ولاّدة دوما" رصينة ظريفة . يوم اقترح ريمون إدّه قانون إعدام القاتل قصدا" ، وقد أُقرّ في 16 شباط 1959 ، كتب عزّت يقترح قانونا" " بقطع اللسان الطائفي " . ويوم نُشر خبر عن أن وزارة الداخلية تلقّت ترخيصا" بإنشاء " هيئة سرّية لتعاطي الرشوة والسمسرة ونهب المال العام " كتب عزّت يستبق الحدث أن الحكومة رفضت الطلب لأنها لا تسمح بتأسيس هيئات تزاحمهما على صلاحيتها ؟ وضحك الناس . وضاق صدر السلطان . فأحال عزّت على القضاء . لكن القاضي ضحك مع الناس. لأن الظرف آسر . ولأن النكتة طاغية .

عزّت كتب يوم الكلمة بِنْتُ إله . وساوره قهر يوم صار الرأي صريع رصاصة .

* * *

هذا الكاتب الألمعى ، وكتابه " طريق المختارة زمن كمال جنبلاط " خير الشاهدين ، زامن الأكابر وجالسهم في الليالي حتى انبلاج الفجر ... من أمين نخله إلى الصافي النَّجَفي إلى إميل لحود وبهيج تقيّ الدين ... مرورا" بـ غنطوس الرامي وكابي اسكندر حداد وفاضل سعيد عقل ...وصولا" إلى تقيّ الدين الصلح وزهير عسيران ... وفي الرفقة عصبة من خيرة أهل مهنة المتاعب ... يستوي، اليوم ، في " أعلام الثقافة في لبنان والعالم العربي " .

بلى ! هو واحد منهم .

أخي عزّت . ألتكريم وأنت توأمان . هنيئا" لك !

كلمة عزت صافي

دور الرأسمال الإعلامي الخارجي

في الصحافة والثقافة والتلفزيون

السيدات والسادة والأصدقاء

نحن في زمن قل تكريم المثقفين في حفل من هذا النوع. فالثقافة في هذا الزمن تذهب إلى رحاب البلاط، حيث يفرش لها السجاد الأحمر، وتحف بها التيجان والسيوف، وتقدم إليها الدروع من ذهب، مع جائزة رقمية يزينها اسم وشعار.

حفلكم هذا، يا سادة، بسيط. بلاطه فضاء حرية، وسجاده ورق، وسيوفه كتب، وتيجانه دواوين شعر، ودرُوعه ثقافة وفلسفة وحكمة. أما جائزته فجلسة إلى هذا المنبر، وشهادة من صديق عارف... وكفى...

هنا، في أحد أرحب بيوت الثقافة في لبنان والعالم العربي، وأمام منبر الحركة الثقافية في أنطلياس أنحني.

سوف أحاول أن أحصر حديثي لهذه المناسبة في الثقافة، وأنا قد تسللت إليها من الصحافة على طريقة من يقفز المراحل ثم يعود إلى بداياتها على مهل. فليس ثمة صحافة من دون ثقافة، وإلا كانت حبراً مزوراً وملوثاً.

كيف تصنع شيئاً لا تصدق إنك أنت صانعه؟ هذا كان شعوري بعد صدور كتابي "طريق المختارة زمن كمال جنبلاط" ذلك أني في ذروة انهماكي بالصحافة اليومية التي ترتهن عمر الصحافي حتى الاستنفاد ما كنت أحسب أني سوف أجد وقتاً للعمل على كتاب، غير أني كنت في ملحق "الأنوار" الأسبوعي أهرب إلى الثقافة في يوم عطلتي.

أهذا من الثقافة أم من الصحافة؟. أصدق الجواب: من الاثنتين معاً. إذ يستحيل الفصل بين الثقافة والصحافة كما يستحيل الفصل بين السلب والإيجاب اللذين عندما يلتقيان يولد النور فلا يعود السؤال: أيهما السلبي وأيهما الإيجابي. فالنتيجة نور.

بوجه آخر، لا يمكن الفصل بين الثقافة وثورات الحرية. فالثقافة هي التي تشعل الثورات ببارود الفكر وشجاعة

الرأي وتحول الصحافة رزم ديناميت.

غير أن هذا كان في زمن مضى، أو كاد. فلا صحافة رائجة وفاعلة في هذا العصر إلا إذا كان بارودها الرأسمال الذي يأتي بالأقلام والأسماء والخبرة وبالتكنولوجيا والابتكار والإبداع، ثم تأتي الإدارة فالتوزيع والانتشار والشهرة.

الصحافة التي تصنعها مؤسسات تملك كل هذه الإمكانات هي التي تأتي بالإعلان الذي يتكفل تمويل الصحيفة ويضمن تقدمها واستمرارها، ويحمي مناعتها فيكتب محرروها ومعلقوها بحرية وصدق ونزاهة وشجاعة، وهكذا تزاوج بين رسالة الصحافة والرأسمال في عصر سقوط الحدود بين الدول والقارات وانتفاء الحاجة إلى القواميس بين البشر واللغات.

عبر هذه الصحافة تنتشر الثقافة وتزدهر بقدر ما تحمل إلى القارئ من نتاج الكلمة، فكراً، وفلسفة، وأدباً، وشعراً ورواية وفنوناً، فيتساوى الفضل بين الصحافة والثقافة، وإذا كلاهما مدين للآخر.

من دون رأسمال وإعلان تجاري، الصحافة رسالة طوباوية صوتها خافت ومداها قصير، والثقافة فيها روائع في معرض مقفر. بل إن الصحافة من دون إعلان مشروع خاسر، باهظ الكلفة.

وكما الصحافة مع الإعلان، كذلك محطات التلفزيون، ومحطات الإذاعة. ولكن من يرسم الحدود بين ما هو إعلان تجاري وما هو إعلان سياسي أو عقائدي؟. ومن يضع نقطة بين نهاية الإعلان وبداية الصحافة، ومن ضمنها الثقافة؟ ومن هي الجهة التي تراقب وتحاسب وتفصل بين ما هو خبر، ورأي وثقافة، وسياسة، وحق بالحرية والمعرفة والاطلاع، وبين ما هو إعلان ومنبر لمشروع سياسي لدولة غريبة أو قريبة. وبين ما هو حق يكفله الدستور والقانون وما هو انحياز أو التزام بنظام خارجي تحت شعارات وعناوين تبطن غير ما تعلن؟

الرأسمال الإعلامي الخارجي إذا جرى توظيفه في الآلات وفي تكنولوجيا المعلومات هو خير وبركة للمعرفة وللثقافة والحضارة. أما إذا جرى توظيفه في الحبر وفي الأقلام وفي الكلمة والصوت والصورة فإنه يشكل خطراً كبيراً على الاستقلال وعلى الثقافة في بلد مثل لبنان يقدس الحرية، ويتساهل في شروطها الوطنية إلى أبعد الحدود حتى إلى حد التغاضي، خوفاً أو مراعاة. عن زعزعة وحدة المجتمع وكيان الوطن وهذا ما يواجهه لبنان في هذه المرحلة.

وثمة خطر آخر لكنه خطر مشروع يأتي من الفضاء الإعلامي المزدحم بالأقمار الاصطناعية وبالرساميل والتقنيات. وعبر هذا الفضاء كان على الصحافة اللبنانية أن تدفع ضريبة عصر الرأسمال الإعلامي الفضائي الذي لا يرحم بقدرته على التنافس والانتشار والسيطرة على معظم أسواق الصحافة العربية.

فصحف هذا الإعلام تحضرُ باكراً مع الصحف اللبنانية على مائدة الصباح، خبراً ورأياً، وفكراً، وسياسة، وثقافة وعلوماً وفنوناً واقتصاداً، كما تحضر في كل بلاد وفي كل مدينة، وفي كل مكتبة ومؤسسة، وفي كل محطة ومقهى، وعلى كل زاوية ورصيف.

مع هذا الإعلام الفضائي والأرضي الغني، المقروء والمرئي والمسموع، اشتدت صعوبة المنافسة اللبنانية، فكان من حق عدد كبير من الصحافيين والإعلاميين اللبنانيين في السياسة والثقافة والاقتصاد والفنون والإخراج أن ينضموا إلى الفضاء الأوسع كتابة، وصورة، وصوتاً.

وفي حين يحمل هؤلاء الزملاء دمغة لبنان أينما ذهبوا، وأينما حلوا، فإنهم لا يستطيعون أن يخفوا في كل طلة وكلمة إن وطنهم تراجع وضاق حتى لم يعد يتسع إلا للمرغمين على الصمود، وللقانعين بأن لبنان أفضل لهم من أي بلد آخر.

ولا ينكر أحد أن ثمة زاوية أمان وفوقها مظلة أسباب للإعلامي السياسي اللبناني الذي يعمل في الصحافة العربية، وهي أنه محكوم بمبدأ الاعتدال والحياد في ما يكتب عن بلاده أو غيرها، وعليه أن يحمل ميزان القيراط في ما يكتب، وأن يحفظ قاموس المصطلحات التي تصلح لكل مقام ومقال. وهكذا يكتشف الإعلامي اللبناني في العالم العربي أنه يخلُق وطناً من خياله ويعيش فيه، ويعتاد عليه، بل يرتاح فيه ويستقر. وإذا ما شط فلا خوف ولا قلق، لكنه ما إن يتنشق نسمة من مناخ لبنان السياسي الحر حتى يدرك أنه غائب عنه في إجازة، ولا بد أنه عائد.

كيف يصبح الوطن مثالاً في الخيال؟ هذا ما نحن فيه. فقد ابتلينا بالداء الوحيد الذي يحمل الموت إلى لبنان عبر الطائفية التي تتخفى في أي دين مقدس وهو منها براء، ونحن نعيش الآن مرحلة كأنها تعود إلى عصور نشوء الأديان في هذا الجزء من الكون حيث شعت أنوار الإيمان بإله واحد متعدد الرؤيا والصلاة فإذا هو في لبنان متعدد الطائفة والمذهب.

لكننا نلاحظ أن أحداً من عباقرة "البروباغاندا" لم يستطع أن يبتكر من الأساليب والوسائل لتعميم الخطاب الطائفي كما يبتكر لنا أهل هذا الخطاب في لبنان. فاستغلال الدين يجري في كل الاتجاهات وفي كل الفرص المتاحة، وخصوصاً في بعض وسائل الإعلام المكتوب، والمرئي، والمسموع، وعلى المنابر وفي الشوارع والساحات العامة، وعلى الجدران، وبمكبرات الصوت في التظاهرات والتجمعات، وبالمنشورات والشائعات، وباليافطات وبأصوات الأولاد والسذج والبؤساء الذين لا يفقهون معنى للدين والإيمان، ولكنهم معبأون لتلبية النداء عند الإشارة في ليل أو نهار.

في ظل هذا المناخ اللاطبيعي، والخطر، على بلد مثل لبنان مميز بمزيجه السياسي والثقافي والروحي والتربوي، والحرية فيه مباحة بكل معانيها، والقانون تحت أحكام الظروف، ينشط دعاة السماوات للسيطرة على الأرض، ويلاقيهم هواة الشهرة والنفوذ فتثور العصبيات، ثم يأتي من يوجهها نحو الهلاك. وليس مثل التلفزيون في هذا العصر صاروخ خارق القارات والعقول والقلوب.

العالم كله اليوم في قبضة التلفزيون. العالم كله واقع تحت سحر هذه النافذة المفتوحة على أربع جهات الكون، ومن خلالها تأتي روائع الجمال والثقافة والفنون، وتأتي نسائم الحرية، وتتدفق أمواج الفرح والتقدم والارتقاء، ولكن من خلال هذه النافذة عينها تأتي أيضاً رياح الشر والجنون والعنف والدمار. وتأتي مشاهد الموت ومواكب النعوش...

وعلى المشاهد أن يختار.

هذا منطق آلة العصر. بل هذا منطق الحرية وحق الإنسان في الاطلاع والمعرفة. وما من قوة تستطيع أن تصد وتردع هذا الصاروخ الهائم في الفضاء والذي ينقض على من يطلبه بلمسة ضوء. وليس في العالم فضاء حر مفتوح للاستثمار السياسي الخارجي مثل الفضاء اللبناني.

ومن المفارقات أن المال الإعلامي الممنوع من أن يُوظف في بلده بحرية تامة مسموح له في لبنان أن يوظف في خدمة دول وأنظمة أخرى. وقد وقع لبنان في دائرة خطر هذا الإعلام الذي تغلب على كل قوانين الدولة ومؤسساتها، حتى بات الكيان اللبناني الصغير و"الفقير" والفريد من نوعه الحضاري، في محيطه أضعف من أن يواجِهَ ويصمد أمام الخطر الذي يطبق عليه من الأرض ومن الفضاء.

بسبب هذا النوع من الإعلام كره اللبنانيون السياسة التي عجنوها وخبزوها، وقد عجنتهم، ورقتهم وخبزتهم وتركتهم أمام النار حتى احترقوا.

وإذا كان التلفزيون نعمة على الثقافة، إذ هو ينشُرها ويعمِّمها بسمينها وغثها، بلبها وقشورها. فإنه بالنسبة إلى الصحافة غول مفترس يلاحقها ويحاصرها في كل لحظة، وهي لا تقوى عليه إلا بحضورها الهادئ والأنيق وبنفحة الصلة المباشرة مع العقل، ومع الشعور، والفكر، والروح، عبر الورق والحبر، إذ تتحول الصحيفة في يد القارئ مرآة صور، ومدى آفاق، وخبر، ورأي، ورؤية، وموقف، وشرح، وضوء بطيء على كل ما شاهد القارئ وسمع بلمحات خاطفة على شاشة التلفزيون.

الثقافة في الصحافة لها طعم آخر ونكهة مختلفة. وصحيفة من دون ثقافة لا نكهة لها ولا طعم. بل إن السياسة والاقتصاد والعلوم إن لم تكتب بلغة عصبها الثقافة فلا رونق لها ولا وهج.

لكن للثقافة في العالم العربي متاعب. ومن متاعبها أن ثمة من يجعلها عباءة فضفاضة جاهزة وتحت الطلب لمن يشتريها ويدفع ثمنها غالياً فيرتديها ويتكئى بها. ولذلك نرى في عالمنا العربي من يزهو بهذه العباءة ونرى من يتقن حياكتها وتسويقها.

وحيث يصر بعض المدن العربية على المشاركة في مواسم إقامة معارض ثقافية دولية للكتاب نقرأ ونسمع صيحة الثقافة في تلك المدن احتجاجاً على منع كتب تحكم عليها "شرطة الثقافة" بالمصادرة والتلف". وأغرب ما في الأمر أن تلك الكتب هي من التراث العربي العريق وقد صدر بعضها في النصف الأول من القرن الماضي، وكانت تلك المدن تحت الاستعمار، وكانت عناوين الكتب المصادرة من علامات شهرتها في الثقافة والأدب وفي مقاومة الاستعمار.

كيف تقاوم الثقافة العربية هذه الاعتداءات المهينة للحضارة العربية، من قديمها إلى حديثها المعاصر؟... فقط بالاحتجاج والاستنكار عبر مقال أو تصريح، وينتهي الأمر. لذلك تمضي "شرطة الثقافة" في تعقب الخارجين على

قوانينها.

في العصور الغابرة كُتبت الحضارة العربية بريش الطيور الجارحة وبحبر الفحم والأصباغ. وقد اخترقت تلك الحضارة حدود بلادها بلغتها، وعمّت أمم العالم، ودخلت في لغاتها وآدابها وعلومها.

أما في عصر الفضاء العربي المفتوح على الكون فإن الفكر الحر يعجز عن الإفلات من قيد "شرطة الثقافة" هذا في حين تسبح في الفضاء بدلاً منه ثقافة القتل وغواية الانتحار بتفجير أطنان الديناميت وسط أولاد المدارس، ووسط تجمعات العمال في الساحات طلباً لفرصة تأتيهم بلقمة عيش. وبالديناميت يلاحق غواة الانتحار سيارات الإسعاف والممرضين والممرضات والنساء الباحثات عن حليب أو دواء للأطفال.

وما يرعبنا نحن اللبنانيين إن اسم وطننا أُدرج أخيراً في لائحة أسماء ثلاثة بلدان في العالم تقع تحت علامة الخطر وغير آمنة للسفر إليها.

فماذا بقي للبنانيين؟

هذا ليس سؤالاً في السياسة.

إنه سؤال في ثقافة الحياة بأبسط الحقوق الإنسانية: الأمان.

إنه سؤال وطن عنوانه الثقافة، والجمال والفنون، والمدنية، والحرية، والديموقراطية، والقانون.

هل صار ذلك اللبنان من الماضي؟... ولماذا؟... ولحساب من؟

هذه أيضاً بعض الأسئلة في الثقافة وليست في السياسة. فأي سياسة أرقى من قيمة الحياة؟

وإذا كان للموت ثقافة فهي ثقافة تكريم الروح عند وداعها في رحلة العودة إلى خالقها راضية مرضية بما بذلت وما أعطت في سبيل الوطن والمواطن، وفي سبيل الحرية والكرامة والعدل.

لبنان وطن لهذه القيم، ولغايتها كان. ورسالته ودوره في عالمه العربي أن يكون في الطليعة بين من يسهم في تعميم ثقافة الحياة التي لا تعني سوى المعرفة والحرية والكرامة والعدل.

ولنتوقف عند هذه الأرقام التي نشرت أخيراً عن الأمية في عالمنا العربي من جهة، وعن هجرة العقول من هذا العالم نفسه.

هناك مئة مليون عربي، فوق سن الخامسة عشرة، أميون بالكامل، وهم نسبة الثلث من مجموع العرب.

وهناك ثلاثمائة ألف متخرج من الجامعات العربية كل سنة يهاجر منهم سبعون ألفاً من ذوي العقول التي تجد

فرصاً لمغادرة أوطانها.

هل نستطيع أن نعرف كم هي حصة لبنان من العقول المهاجرة خلال أربعة عقود مضت على الأقل؟

نخاف الأرقام والنتائج والعواقب، لأننا سنكتشف أن لبنان يصدر شباباً وعقلاً وثقافة حياة، ويستورد سلاحاً ومتفجرات، وثقافة عصبيات، تهدد من بقي فيه وما بقي منه.

نحن أيها السيدات والسادة في عصر لا نستطيع الانفصال عنه، وليس لنا من قوة هذا العصر سوى العلم والثقافة والذكاء والمغامرة. وأهمية ثقافة لبنان أنها متعددة الفكر واللغة، فإذا صارت ثقافة موحدة قضي على لبنان، نحن في حاجة إلى تربية مدنية وطنية موحدة. وليس إلى ثقافة موحدة.

وحتى لا أختم على سواد أقول:

نحن في حاجة إلى أي ذرة إيمان بقيامة لبنان. فالإيمان ثقافة وليس سياسة.

وقيامة لبنان حقاً آتية.

شكراً لعامية أنطلياس الثقافة والحرية والفنون والعلوم.

شكراً لعامية أنطلياس لبنان الأمس، ولبنان الغد.

وشكراً للأصدقاء والزملاء الشهود على ما أعلنوا وعلى ما كتموا...

وشكراً لكل وجه أمامي في هذه القاعة وفي رحاب هذه الفسحة المضيئة التي تمثل نقطة الارتكاز في لبنان بين شمال وجنوب، وبين بحر وسهل وجبل.

تكريم أعلام الثقافة في لبنان والعالم العربي

تكريم الأب عادل تيودور خوري

2008/3/8

كلمة د. عصام خليفة

كلمة الأب الياس أغيا البولسيّ

كلمة الأب عادل تيودور خوري

كلمة د. عصام خليفة

معلّم تدرّج في كنف الجمعية البولسية الكريمة التي وسيلتها الأولى والمميزة، في القيام برسالتها، هي على مثال بولس الرسول، اللسان والقلم (البند 4 من نظام الجمعية). ثم تدرج في التعليم الجامعي في أعرق جامعات المانيا والغرب ليصبح مرجعاً ومناراً.

متمكن من علوم الاديان وتاريخ الحضارات والفلسفة وسائر العلوم المساعدة.

يمتلك عبقرية اللغات الحية وبخاصة العربية والفرنسية والالمانية والانجليزية، كما يجيد سبراغوار اللغات القديمة كاللاتينية واليونانية وغيرهما.

فنان جمع بين جمال الصوت وروعة الخط وعلم الموسيقى والتأليف وادارة الجوقات بنجاح كلي. كاهن مؤمن برسالته.

انسان مثال يحترم الآخر ويجيد فن الصداقة، ويتمتع بملكة التواضع.

هذا هو الأب **البروفسور عادل تيودور خوري** الذي تتشرف الحركة الثقافية – انطلياس بتكريمه علم ثقافة في لبنان والعالم العربي (الرعيل 23) في المهرجان اللبناني للكتاب (العام 2008).

أيها الحفل الكريم،

في تبنين أحد حواضر جبل عامل ولد علَمنا. وفي اعتقادي ان روح التعايش بين ابنائها المسلمين والمسيحيين، وما قام به المسلمون فيها من دفاع عن مسيحيي الجنوب في الفترة العثمانية وفي ظل الانتداب

الفرنسي (نزوح اهل عين ابل اليها عام 1920) كان له الأثر اللاواعي في اهتمام علمنا بالاسلام وبحتمية الحوار المسيحي – الاسلامي. وربما كان لثقافة والده استاذ التعليم الرسمي وخريج مدرسة القديسة حنّة (الصلاحية) في القدس، وكذلك ربما كان لاساتذته في اكليريكية القديس بولس الصغرى ولرفاقه الدور البارز في توجيه اهتماماته الثقافية.

أيها الأصدقاء،

ليس من دوري، في هذه العشية ان اتوسع في سيرة علمنا وفي تقويم عمارته الفكرية الاستثنائية.

وانما حسبي ان اشير الى بعض المعطيات:

1- **بين عام 1954 وعام 2008 انجز عَلَمنا 291 بحثاً وكتاباً** باللغات العربية والالمانية والفرنسية. من أبرزها نقل معاني القرآن الكريم، عام 2004، الى الالمانية وتفسيرها (813 صفحة) وقد لقي هذا العمل رضى اهم المرجعيات الدينية بسبب الدقة والامانة.

2- **درّس وحاضر في 31 جامعة** في المانيا خاصة، وفي اوروبة عامة، وفي لبنان وايران. في مونستر انتُخب مدرّساً لعلوم الاديان. فالتف حوله الطلاب، على تنوع الجنسيات. ومع صعود نجمه في المؤتمرات والندوات والمقابلات الاعلامية، وكثافة الدراسات والابحاث التي كان ينشرها، نال درجة الاستاذية بجدارة واستحقاق. ثم رقي الى درجة العمادة في الكلية، بعد فترة، فتفوق في الادارة، كما كان متفوقاً في التعليم والبحث.

3- **كان عضواً مشاركاً في 35 اكاديمية** في اوروبا وفي الخارج. وكانت ابحاثه ومداخلاته تتمتع بسلطة معرفية قلما تمتع بها الآخرون.

4- **علمنا "مترهب" للحوار بين الاديان** عموماً وبين المسيحية والاسلام خصوصاً. درس **العوائق المعترضة** لهذا الهدف الأسمى: كالتزمّت والانعزال، والجهل وانعدام الكفاءَة، وعدم الصبر على الفكر، وعدم الصبر على المغايرة والاختلاف. ثم درس النصوص الدينية المسيحية والاسلامية خاصة ثم اليهودية والبوذية والهندوسية. وحاول ان يثبت، من خلال قراءَة جديدة لها، اسانيد لفلسفته الانسانية السامية. هدفه السلام بين البشر وبناء مستقبل يؤكد على العيش المشترك بدل التنابذ، وتعميق السلام في القلوب والعيال والمجتمعات، بدل تعميق الحقد والاصرار على خصومات الماضي. سلام يضم الجميع فلا تفرّد ولا استئثار، بل سعي مشترك للتفكير والتقرير والتنفيذ معاً.

والأب خوري يؤكد **على طلب المصالحة والتصافي**، والاستفادة من عبر الماضي لتحسين اوضاع الحاضر وبناء المستقبل. يؤكد في خطاب له: "على المسيحيين والمسلمين، في شرقنا وفي العالم كلّه، عليهم ان يُضحوا شركاء يعمل الواحد منهم مع الآخر. اجل، هناك اكثر من ذلك، عليهم ام يُمسوا اصدقاء يعمل الواحد منهم في سبيل الآخر، ويعملون معاً في سبيل البشرية جمعاء، اصدقاء تربطهم بعضهم ببعض اواصر المودة".

والأب خوري على يقين "بأن الدين لا يفرق، ان فهم صحيحاً وطبّق تطبيقاً نصوحاً. الدين لا يفرق، الدين يجمع. فكل من توجه الى ربه والتمس وجهه بصفاء النية وصدق القلب لا يجد البغض مدخلاً الى قلبه ولا يحرك العنف يديه" ويضيف "نحن بحاجة الى تعاطف ناقد، وتصافٍ صادق، وتصالح ودي، وتعاون مقدام".

ولم يقتصر البروفسور خوري على الطرح النظري فعمل **لانشاء مركز للحوار** في فيينا (النمسا)، ثم مركز ثانٍ للحوار في حريصا (لبنان). وطّد فيهما معاً قاعدة العمل، وحدد المنهجية، واسهم بخبرته ورؤيته السديدة بتأمين النشاطات الفكرية المختلفة.

ويا ايها العَلَم العلامة،

لبنان وطن الحوار والتعايش مهدد من الطامعين الخارجيين، كما هو مهدد من قبل القوى الداخلية المرتبطة بمخططات ومصالح الخارج القريب والبعيد.

امتناع اهل السياسة عن الحوار والتسامح، والتوصل الى تسوية يكون انطلاقتها الانتخاب الفوري لرئيس الجمهورية، هو موقف يهدد وجود الدولة واسس المجتمع بالانهيار.

لكن مقاومتنا الثقافية المشتركة – وحركتنا على كل حال قامت في ميثاقها التأسيسي على رفض العنف، والالتزام بالسلام العادل، والتأكيد على دور هذا الوطن الصغير في حوار الحضارات – خاصة بين المسيحية والاسلام – نقول ان مقاومتنا الثقافية المشتركة لا بد ستنتصر لأن عالم المستقبل، كما تقولون وتؤمنون "بحاجة الى خدمة المصالح والتصافي" بحيث "تعتبر فيه الثقافات المختلفة غنى وكنزاً".

وان معركة بقاء لبنان الدولة المستقلة، والمجتمع الحر، والثقافة المتعددة، هي نفسها معركة انتصار التقدم والحوار وحقوق الانسان ليس فقط في شرقنا العربي بل على مستوى العالم أجمع.

كلمة الأب الياس أغيا البولسيّ

مقدّمة

طلب منّي منظّمو حفل التكريم هذا اليوم، أن أقول كلمة. قبلتُ للوهلة الأولى هذه المهمّة بطيبِ الخاطر، نظرًا لما يربطُ الأبَ عادل تيودور خوري بالجمعيّة البولسيّة من صِلات قربى روحيّة وعائليّة وعلميّة وتاريخيّة، ومن صداقة وتعاون راسخَين يدومان منذ عقود طويلة. وقبلتُ هذه المهمّة أيضًا لما تربطني، شخصيًّا، بالأب تيودور من وشائج روحيّة ونفسيّة منذ عرفتُه في الإكليريكيّة البولسيّة الصغرى في بداية الستينات، حين كان مرشدي الروحيّ ومعرّفي، وواعظًا في تأمّلات الصباح، وأستاذًا لرفاقي الكبار وساردًا قصصًا أخلاقيّة عن الدجاجة وعن الأبطال وحين كان ناظرًا في فرص المساء، الخ...

لكن عندما أكببتُ على تلمّس خيوط الحديث الذي يجب أن أشاطركم إيّاه هذا المساء، وجدتُ نفسي أمام بحر لا بل غارقًا في أوقيانوس من العلوم، بحسب المعنى الأفلوطينيّ، لا يُسبَر غوره، وأمام إنسان عملاق متعدّدِ المجالات والمواهب، تذهب بنا إلى البعيد. فشعرتُ بضعفي ومحدوديتي في الغوص في مجال كهذا، وأردتُ العكوف. ولكن حضرتني جملة في أنشودة زمن الميلاد، نمدحُ فيها كمال السيّدة العذراء وفضائلها، تقول: "أيّتها البتول، إنّه يعسر علينا جدًّا أن ننظم لك أناشيد لائقة بتواتر، لأنّ الخوف يجعلنا نؤثر الصمت، إذ هو أسهل لا خطر فيه (أي لا نغلط فيه)؛ وأمّا الشوق فيولينا نشاطًا، فامنحينا قوّة على مقدار شوقنا إليك"... إنّ محبّتي للأب عادل تيودور خوري وتقديري له، حثّاني على كتابة كلمتي، بالرغم من محدوديّتها، وفضّلت هذا الموقف على أن لا أقول شيئًا بحقّ مَن كان له فضلٌ علي في استمراري في الكهنوت وفي دفع حيويّة جديدة في حياة الجمعيّة البولسيّة في ما بعد.

واصطدمت آنذاك بصعوبة أخرى هي التعبير عن غزارة الواقع وفورة الأحاسيس وتدفّق الأفكار. إنّ تدفّق الكلام في هذه المواضيع يأتي دومًا، كما في اللاهوت والأدب والفلسفة، محدودًا ناقصًا مشوّهًا، وبخاصّة عندما يعبّر عن إنسان عظيم، متعدّد الأبعاد، مثل الأب عادل تيودور خوري، الذي نكرّمه هذا المساء.

فاقبلوا كلمتي التي أسوقها، ليس بدافع امتلاك الموضوع والغوص فيه بكلّ ارتياح، بل بدافع محبّتي وتقديري للأب الذي نكرّمه غارفًا ممّا أعرفه عنه، وممّا عشتُه معه في سني حداثتي، عندما كان رفيق دربي ومثالي الأعلى في الحياة والكهنوت، وممّا أعيشه معه كلّ يوم، إذ يقيم في "صومعته" بالقرب منّي في ديرنا في حريصا.

سيرة حياة:

من هو الأب عادل تيودور خوري، الدكتور والبروفسّور ذو السمعة العالميّة؟

إليكم ما تقول سيرته الذاتيّة بخطّ يده:

وُلد في 26 آذار سنة 1930 في تبنين، لبنان الجنوبي. أتمّ دراسته الابتدائيّة والثانويّة في المدرسة الإكليريكيّة الصغرى للآباء البولسيّين، حريصا–لبنان. ثمّ تابع دراسة الفلسفة واللاهوت في المدرسة الإكليريكيّة الكبرى للآباء البولسيّين، حريصا. سيم كاهنًا في 8 شباط 1953.

تابع الدراسات الجامعيّة العُليا في المعهد الفرنسيّ العالي للدراسات في بيروت (وهو ملتحق بجامعة ليون – فرنسا). حاز على ليسانس في الفلسفة سنة 1959. ثمّ درس العلوم الشرقيّة في معهد العلوم الشرقيّة بجامعة القدّيس يوسف اليسوعيّة، وحاز على ليسانس في العلوم الشرقيّة سنة 1960.

من سنة 1960 إلى سنة 1963 كان مدرّسًا للفلسفة والموسيقى الكنسيّة في إكليريكيّة القدّيسة حنّة، القدس. 1963 – 1966 التحق بمعهد علوم الأديان في كليّة اللاهوت الكاثوليكيّة بجامعة مونستر – ألمانيا لمتابعة أبحاثه العلميّة وإعداد أطروحتَي دكتوراه الدولة بجامعة ليون – فرنسا.

سنة 1966 حاز على دكتوراه دولة في الآداب بجامعة ليون – فرنسا.

سنة 1966 عُينّ مدرّسًا لعلوم الأديان في كليّة اللاهوت الكاثوليكيّة بجامعة مونستر – ألمانيا. وسنة 1970 عينّ بروفسورًا لعلوم الأديان ومديرًا لمعهد علوم الأديان في الكليّة عينها، حيث مارس البحث العلميّ والتدريس والنشر وإلقاء المحاضرات، حتّى آخر أيلول 1993.

دخل في طور التقاعد في تشرين الأول سنة 1993.

هو عضو في الأكاديميّة الأوربيّة للعلوم والفنون.

وعضو في جمعيّة علماء الأديان الألمانيّة.

وعضو في معهد القدّيس جبرائيل للاهوت الدين في مودلينغ – قرب فيينّا / النمسا.

منحه رئيس جمهوريّة النمسا وسام الشرف الرفيع تقديرًا لخدماته العلميّة حيال جمهوريّة النمسا.

حقول أبحاثه العلميّة

- تحليل الظاهرة الدينيّة.
- علوم الأديان: الهندوسيّة – البوذيّة – الإسلام.

- حقول التخصّص: الإسلاميّات – العلاقات بين المسيحيّة والإسلام في الماضي والحاضر – الحوار المسيحيّ الإسلاميّ على الصعيد الوطنيّ والدوليّ.

حقول نشاطه التعليميّ والعمليّ

1) تدريس متواصل في كليّة اللاهوت الكاثوليكيّة بجامعة مونستر من سنة 1966 إلى سنة 1993 ألمانيا.

إلقاء دروس في كليّة اللاهوت الكاثوليكيّة بجامعة بوخم (Bochum) / ألمانيا

إلقاء دروس في معهد القدّيس جبرائيل للدراسات اللاهوتيّة [معهد كاثوليكيّ: مودلينغ / النمسا]

إلقاء دروس في معهد القدّيس بولس للفلسفة واللاهوت (حريصا – لبنان)

إلقاء دروس في كليّة اللاهوت في الجامعة الأنطونيّة (الدكوانة – بيروت / لبنان)

2) الاشتراك في عدد كبير من المؤتمرات والندوات الوطنيّة والعالميّة، والدورات الاستشاريّة في موضوع الإسلام ووضع المسلمين في ألمانيا وأوربا.

3) كعضو في معهد القدّيس جبرائيل للاهوت الدين (النمسا)، المساهمةُ في تصميم وعقد أكثر من 14 مؤتمرًا وندوة على الصعيد الوطنيّ والدوليّ، خصوصًا الندوات الإيرانيّة النمساويّة، و"الطاولة المستديرة" في فيينّا / النمسا.

4) إبداء الرأي في وسائل الإعلام من تلفزيون وإذاعات، ومجلاّت وصحف عن مواضيع تتعلّق بالإسلام وبالحوار المسيحيّ الإسلاميّ.

5) نشر المقالات في المجلاّت العلميّة والكتب. وإدارة طائفة من سلاسل الكتب العلميّة في ألمانيا وفي لبنان.

6) محاضرات في الإسلام والحوار المسيحيّ الإسلاميّ والتعاون بين المسيحيّين والمسلمين، وذلك في إطار مؤسّسات مختلفة:

- **جامعات:**

o **ألمانيا**: أوغسبورج، برلين، بون، هانوفر، هيدلبرج، هيلدسهايم، كوبلنتس، ماربورج، مونستر، نورنبرج / إرلانغن، أوسنابروك، بادربورن، باسّاد، توبنغن، فالينداد، فيختا.

- **النمسا**: غراتس، إنسبروك، لينتس، مودلينغ، زالتسبورج، فيينّا.
- **سويسرا**: بال / بازل، برن، جنيف، فريبورج.
- **إيطاليا**: بريكسن (برسونة)
- **سلوفاكيا**: بودفايس
- **سلوفانيا**: ليوبليانا
- **لبنان**: بلمند، حريصا
- **إيران**: قُم، طهران

– **أكاديميّات:**

- **ألمانيا:** أرنولدسهايم، بامبرج، بندورف، بون، برلين، كلوبنبورج، فرايبورج، غوسلار، همبورج، هانوفر، إيزرلون، ماغدبورج، مولهايم على الرور، مونستر، نوردفالده، أولدنبورج، رادولفتسال، سانكت أوغسطين، شفارته، زوست، توبنغن، فيغراتسباد.
- **النمسا:** بريغنتس، إنسبروك، لينتس، مودلينغ، فيينّا.
- **سويسرا:** سانكت غالّن، تسوريخ.
- **بلجيكا:** لوفان
- **إيطاليا:** رومة
- **إيران:** قُمْ، طهران.
- **مصر:** القاهرة
- **مراكش / المغرب:** محمّديّة
- **كامرون:** ياوندە
- **لبنان:** مؤتمرات الأب مارون عطا الله، سيّدة الجبل (معاملتين)

7) تلفزيون:

- **ألمانيا:** القناة الأولى (ARD)، القناة الثانية (ZDF)، الإذاعة البفاريّة (مونخن).
- **لبنان:** تلي لوميار
- **سورية:** الفضائيّة

8) راديو:

- ألمانيا: الإذاعة البفاريّة، الموجة الألمانيّة (Deutsche Welle)
- لبنان: صوت المحبّة.

9) ترجمة مقالات عديدة وبعض الكتب من الألمانيّة إلى العربيّة، خصوصًا في سلسلة "المسيحيّة والإسلام في الحوار والتعاون"، المكتبة البولسيّة (جونية – لبنان) يديرها عادل تيودوري خوري. وقد صدر منها حتّى الآن 40 عددًا.

بعد هذا السرد السريع للسيرة الذاتيّة، أشاطركم كلمتي في أربعة مقاطع رئيسيّة:

1. الأب عادل تيودور خوري الكاهن والمربّي.
2. الأب عادل تيودور خوري العالم.
3. الأب عادل تيودور خوري الفنّان.
4. وأنهي بالأب عادل تيودور خوري الإنسان.

1. الكاهن والمربّي

منذ خمسين عامًا أذكر الأب تيودور حاملاً سواعيّته (كتاب صلاة الساعات للكاهن) كلّ صباح ليشترك في الصلاة الجماعيّة والليترجيا الإلهيّة، ولا يتغيّب مطلقًا عن الصلوات الجمهوريّة. وبعد عشرين عامًا وكنت قد غدوتُ كاهنًا بولسيًا دفعتني أسفاري للبقاء عنده أسبوعًا كاملاً في ألتنبرغه في ألمانيا. عرفتُ آنذاك أنّ القدّاس اليوميّ في الرعيّة مع صلاة خاصّة صامتة كانت محرّك حياته والطاقة التي تُعطي معنى لكلّ عمله. واليوم، بعد انقضاء خمسين سنة على معرفتي به، ما يزال، بخاصّة عندما يكون في حريصا، أمينًا ثابتًا على صلاته الصباحيّة في الجماعة، يفتتح بها نهاره، ويجدّد بواسطتها العزم والنشاط لعمل مستديم في خدمة الربّ. وبالصلاة أيضًا يُنهي يومَه. فهو الكاهن المؤمن بكهنوته وبرسالته، ولا يزال يعتمد على صلاته الخاشعة وأمانته لهذه الرسالة، يستثمرها ويفعّلها. وعندما تلتقي به وتتحدّث إليه لا ترى فيه أوّلاً وآخرًا سوى رجل الله الصادق الشفّاف الذي يتلمّس حضوره ويصغي إليه في ذاته وفي الآخرين. لذا تراه متنبّهًا لكلّ شخص يعرفه ويسأل عنه ويتسقّط أخباره ويشجّع كلّ بوادر النجاح عنده، من درس وتأليف وبحث إلخ... وتراه أيضًا يلاحق قضايا ظهورات المسيح والعذراء، سواء أكان ذلك في الصوفانيّة، أم في أماكن غيرها، يستجلي خفاياها ويَسمعُ ما يقوله الروح للناس الذين تَحدثُ لهم هذه الظهورات...

أمّا عن التربية، فحدّث ولا حرج، إذ إنّه "لا يَكسُر القصبة المرضوضة، ولا يعلو له صوت في الساحات" على حسب قول الكتاب المقدّس، ولا يؤمن بمنطق سوى منطق العقل والإرشاد والمعاملة بالحسنى، لا بل بالتي هي أحسن. ولا يتوقّف عند عمل سلبيّ، بل يستفيد منه ليقوّم اعوجاجًا ويوضح الرؤية إلى الأمور، بصوت منخفض وحزم محبّ. وقد استفدتُ أنا شخصيًا حتّى الآن من بعض توجيهاته التي كان يقولها لي منذ صغري.

2. الأب عادل تيودور خوري العالم والبحّاثة

يكفي ما سمعتم في السيرة الذاتيّة عن كلّ الدروس التي أنجزها في لبنان وفرنسا وألمانيا حتّى وصوله إلى درجة البروفسّور ومدير لمعهد الأديان في مونستر. وعن حقول أبحاثه العلميّة وحول نشاطه التعليميّ في الكليّات وعن اشتراكه في المؤتمرات والندوات، وعن دوره في تحضير للمؤتمرات العالميّة، وعن المحاضرات التي ألقاها في الإسلام والحوار المسيحيّ الإسلاميّ في جامعات وأكاديميّات منتشرة في كلّ معظم بلدان أوربا والشرق الأدنى، وفي التلفزيون والراديو. أضف إلى ذلك لائحة من حوالي 300 عنوان بين بحث وكتاب ومقالة تمتدّ على ستّة عقود من الزمان...

إنّما أتوقّف عند نقطتين تجب الإشارة إليهما:

1) **طواعية في التأقلم على مختلف الأوضاع:** عُينّ مرسَلاً في رسالة مرمريتا، وكان التدريس في مدرسة

القدّيس بطرس هناك بعضًا من مهامه. أمّا مدير المدرسة فكان الأب جبرائيل فرح. فرأى الأب عادل تيودور المديرَ منهمكًا في إعداد برنامج الدروس، حائرًا... وبقي ساعات دون أن يخرج بنتيجة. لاحظ الأب عادل حيرتَه، فسأله ما المشكلة؟ فأجابه: "البرنامج". فطلب منه أن يترك له المجال لإعداد البرنامج. وخلال ربع ساعة كان الأب عادل تيودور قد أعدّ البرنامج جاهزًا مكمّلاً! وكان لبُّ الحلّ أن أخذ الأب عادل تيودور على عاتقه كلّ الساعات التي تسبّب معضلة! وانحلّت عقدة البرنامج. عندما رأى الأب المدير هذا، قال له: "كن أنت المدير، فذلك يريحني"! وذلك أنّ الأب عادل تيودور كان مجلّيًا في كلّ المواد الأدبيّة والرياضيّة والعلميّة، بدون استثناء، ولا تنقص علاماته إلاّ نادرًا عن حدّها الكامل، في الأدبين العربيّ والفرنسيّ، وفي الرياضيات والعلوم والفلسفة والفنون... الخ. وكأنّي به من كبار العباقرة، المتعدّدي المواهب، يذكرهم الناس عادة في ناحية واحدة لنجاحهم العظيم فيها كالنحت أو الفلسفة أو غيرها، ولكنّ التاريخ يذكر أيضًا كلّ المجالات الأخرى التي أبدعوا فيها.

2) قد نتساءل عن **سرّ غزارة إنتاج** الأب عادل تيودور الفكريّ، إذ لا تقلّ الإصدارات في السنة الواحدة عن ثلاثة كتب، وقد تزيد عن عَشَرة. الجواب نجده في **المثابرة ساعاتٍ وساعاتٍ** كلّ يوم، جالسًا إلى مكتبه، يبحثُ وينقّب ويقمّش ويقرأ ويكتب وينقّح بجدّ وثبات وبدون كلل أو ملل. كان بعض الناس، زمن الفيلسوف الألماني كانت، يصحّحون ساعاتهم على وقت مروره أمامهم في الشارع، نظرًا للدقّة المتناهية التي كان يتقيّد بها. ولم يغيّر مساره، على مدى أربعين سنة إلاّ مرّة واحدة، عندما حدثت ثورة. في حياة الأب تيودور كثيرٌ من دقّة كانت. وإذا أردتم الاطّلاع الأوسع على ما فعل الأب عادل تيودور خوري فافتحوا من باب الحشرية أداة البحث google تحت اسم عادل تيودور خوري فتجدوا تحت عنوان مقالات articles حوالي 23،000 معلومة وتحت عنوان professeur 16.900 معلومة، وتحت اسم كتب books 1360 معلومة وتحت عنوان TV 937 معلومة، وتحت عنوان Radio 773 معلومة الخ...

3. الأب عادل تيودور الفنّان

لئن طغت على الأب عادل تيودور صورة العلاّمة والبحّاثة واللاهوتيّ، المحاور في الأديان والفلسفة والشارح في الإسلام، فإنّ روحه هي روح فنّانٍ أولع بالموسيقى والخطّ وساهم بشكل مباشر في إغناء التراث الليترجيّ الموسيقيّ في جمعيّة المرسلين البولسيّين، وفي كنيسة الروم الملكيّين الكاثوليك. دَرَس البصلتيكا (الموسيقى البيزنطيّة) والصولفاج، وتعلّم المبادئ الموسيقيّة الأساسيّة ومبادئ التأليف الموسيقيّ على نفسه. فكنت تراه يتمرّن على كمان تاريخيّ قديم يستخرج الألحان منه، وتَسمعُه يُنصت مطوّلاً إلى كبار المرنّمين البيزنطيّين اليونان والشرقيّين أمام جهاز الراديو القديم، ليشبع من التراث الأصيل الذي سيساعده مستقبلاً. وبعد أن أصدرت اللجنة الليترجيّة النصوص الجديدة للأعياد في منتصف الخمسينات، عكف الأب عادل تيودور على تنقيح النصوص الموسيقيّة القديمة لتأتي مطابقة للنص العربي الجديد لأعياد الميلاد والظهور، ودخول السيّد المسيح إلى الهيكل، ودخول العذراء إلى الهيكل. ثمّ وضع النصوص الموسيقيّة كاملة لأعياد التجلّي (6 آب) ورقاد السيّدة العذراء (15 آب)، وميلاد العذراء (8 أيلول)، وعيد رفع الصليب الكريم (14 أيلول)، وكذلك النصوص الموسيقيّة الكاملة

لصلاة الغروب بألحانها الثمانية، ولقانون البراكليسي في شهر آب وصلاة المدائح (في فترة الصوم) ومختلف ألحان المجدلة الكبرى، وعشرات الترانيم الدينيّة في القدّاس، بألحانها المختلفة، تترنّم بها الجوقات بمختلف الأصوات. ويَحقّ القول أنّ الأب عادل تيودور قد سكبها من قلبه وفكره وفنّه الموسيقيّ المرهف، وخطّها كلّها موسيقى وكلمات، بخطّه الجميل، مدّة ساعات وأيّامًا، جالسًا إلى طاولة خشبيّة في فترات الظهر والمساء وأثناء المناظرات. وكنا نجتمع حوله أحيانًا، نناقشه ونسأله، وأحيانًا أخرى، نرنو إليه من البعيد، محترمين جوّ الإبداع ومحاولين فهم عمليّة الخلق العظيمة التي تجري أمامنا.

وبرزت النصوص الليترجيّة الجديدة (حوالى 10 كتب) بِحُلّةٍ ولحن جديدين، هما عصارة فنّ الأب عادل في الموسيقى والخطّ وذوقه الليترجيّ. وكان الله قد حباه بموهبة الصوت الجميل الدافئ الذي يدعو إلى الخشوع، فراح يلقّنها بأسلوبه الفطن لكبار الجوقة الذين تذوّقوها ومهروا في أدائها. فلم تمضِ أشهر السنة الأولى إلاّ وكانت الترانيم الجديدة حسب النصّ الجديد تتردّد أصداؤها في معبد الدير القديم، وفيما بعد، تحت قباب الكنيسة الكبيرة، ممجّدة الله والعذراء القدّيسة وكلّ القدّيسين. وغدت هذه الألحان العمود الفقري لتراث الجمعيّة البولسيّة الليترجي المرنّم حتّى اليوم. وقد لبست هذه الألحان، مجدّدًا، حلّة قشيبة تحت إشراف الأب تيودور، مطبوعة حسب برامج الكومبيوتر الحديثة. وهنا لا بُدّ من ذكر عشرات الحفلات الليترجيّة المرنّمة (Concert religieux) التي قامت بها الجوقات البولسيّة المختلفة في حريصا وجونية وبيروت وزحلة ودمشق، تنقل المستمعين إلى أجواء الأعياد وتنتقل بروحهم إلى السماء، كما تقول النصوص الليترجيّة: "إنّنا ونحن واقفون في هيكل مجدِك، نحسب أنّنا واقفون في السماء، يا والدة الإله العذراء"، لأنّ الترنيم يبعثُ على الصلاة مرّتين، كما يقول المثال الساري: "مَن صلّى فقد صلّى مرّة، أمّا مَن يرنّم فهو يصلّي مرّتين". فالأب عادل تيودور هو فنّان أصيل غرف من فنّ الشرق المسيحيّ البيزنطيّ وسكبه في قالب عربيّ أصيل وبخطّ عربيّ أصيل.

4. الأب عادل تيودور خوري الإنسان

إذا عرفت كلّ هذا عن الأب عادل تيودور خوري فلا تظنَّنَّ أنّك ستجد إنسانًا غارقًا في العمل إلى حدّ الانقطاع عن الآخرين، ولا إنسانًا قد ملأه الغرور فتعالى عن الآخرين أو أحاط نفسه بحرّاس شخصيّين يدرأون عنه موجات المعجبين أو الحانقين؛ وإذا اتّصلت به في عمله، فلا يحيلك هاتف إلى شخص آخر وشخصٌ آخرَ إلى هاتف... بل تسمع صوتًا خافتًا يردُّ شخصيًا على المكالمات، وتحدّثه فتعجب من كلامه العذب؛ وإذا رأيته وبدأت الحديث معه تظنّ نفسك أمام شخص عادي، ولكنّك بعد قليل تشعر بحجمك يصغر أمام حجمه الذي يكبر في عينيك قبل عيون الآخرين. إذا شعرت بكلّ هذا فأيقن أنّك أمام الشخص الصحيح الذي نتكلّم عنه.

أوّلُ ما يلفت نظرك هو اتّساع في المعرفة والحجّة الدامغة، ولكن على نمط غير الذي نعهده عند بعض أهل بلادنا. **عنده تواضع العلماء**، حسب القول الساري: "قليل من العِلم يُبعد عن الله، وكثيرٌ من العلم يقرّب من الله"، متمثّلاً بالمعلّم الأكبر السيّد المسيح، الذي قال: "تعلّموا منّي فإنّي وديع ومتواضع القلب". هذا هو عنده مفتاحُ العلاقة مع العلم ومع الناس. فمع العلم، إنّ التواضع والشعور بمحدوديّة المعرفة هي الأساس في الاستزادة من العلم؛ وكذلك في العلاقات مع الناس، فالتواضع هو مفتاح القلوب وبلسم العلاقات المتأزّمة وزيت إصلاح العلاقات

المقطوعة... فإذا ما حادثتَه صمتَّ وتركته يتكلّم هو كما كان سقراط مع تلاميذه... وتخرج من عنده كبيرًا في عيني نفسك، إذ أخذْتَ منه شيئًا لحياتك.

المحاور

إذا استعرضت مؤلّفات الأب عادل تيودور خوري يستلفت انتباهك حالاً غزارة العناوين التي تشير إلى الآخر، وإلى الأديان الأخرى. وتدلّ على السعي للغوص على ما يفكّرون فيه، وبخاصّة تتردّد **كلمة الحوار**.

أبدأ من العناوين الأخيرة لبعض كتبه ومقالاته.

263: مع يسوع في لقاءاته (2004)

264: الظاهرة الدينيّة، نشأة الخلق (2004)

265: مدخل إلى الأديان الخمسة (2004)

260: إبراهيم بركة للشعوب في التراث اليهوديّ والمسيحيّ الإسلامي (2004)

258: الحوار المسيحيّ الإسلاميّ، مشاكله وإمكانيّاته (2003)

257: هل القرآن وحي إلهي من وجهة النظر المسيحيّة (2003)

256: حسم الخلافات والتصالح (2003)

253: خواطر في القيم المشتركة بين الإسلام والمسيحيّة (2003)

249: نقاط خلاف عقائديّ بين المسيحيّة والإسلام (2002)

261: القرآن عربي – ألماني، ترجمة وتفسير، 813 صفحة (2004)

القرآن عربي – ألماني، ترجمة وتفسير علميّ، 12 جزءًا على امتداد 12 سنة (1990–2001)

205: هويّة المسلمين في بلد غير إسلاميّ (1996)

210: الحقيقة الدينيّة والتسامح (1996)

189: الإسلام يسائل المسيحيّة في شؤون اللاهوت والفلسفة (1994)

132: اليهود والمسيحيّون والمسلمون في حوار (1986)

إنّ شخصيّة الأب عادل تيودور خوري مبنيّة على الحوار وعلى الإصغاء للآخر وعلى محاولة فهم لبّ المشكلة، مذ كان صغيرًا. إنّ السؤال البديهي الذي يطرحه عليك حين تكون في حديث معه: "وين المشكلة" هو سؤال إنكاري ليقول أنّ لا مشكلة على الإطلاق، وأنّ كلّ شيء ممكن حلّه بالحوار والتفاهم. بعد أن فَطِن لأهميّة العنصر الدينيّ في المجتمعات أظنّ أنّ هدف الأب عادل تيودور هو:

1. درسُ الظاهرة الدينيّة في المجتمعات وفي الأديان الأخرى (خمسة أديان كبرى)

2. تقريب القارئ إلى هذه الديانات لفهمها من داخل (236: أخلاقيّات العمل في منظار الأديان العالميّة)

3. إبراز المفاهيم والأشخاص المشتركَين في مختلف الأديان (إبراهيم مثلاً)

4. تفسير الإسلام للمسيحيّة والمسيحيّة للمسلمين، لتقريب الأفهام، (ترجمة القرآن وتفاسيره للألمانيّة...)

5. طرح القيم المشتركة، لأنّه يشدّد على وجهات التلاقي في الأديان: سلامٌ للبشر (1994)

6. عدم الخوف من طرح نقاط الاختلاف والخلاف العقائديّة والاجتماعيّة والانتمائيّة: وحدانيّة الله، إله الإسلام (رقم 228)؛ المسيحيّون والمسلمون: مشاكل حوار صعب، 1998 (رقم 222)؛ هويّة المسلمين في بلد غير إسلامي، 1996 (رقم 205)؛ الحقيقة الدينيّة والتسامح، 1996 (رقم 210)؛ قضيّة الأقليّات الدينيّة في الإسلام: حريّة الدين. المسيحيّة؛ والإسلام أمام مطلب حقوق الإنسان، 1993 (رقم 176)؛ المسلم، من هو قريبُه، 1998 (رقم 148).

إنّ المبدأ الأساسيّ في فكر الأب عادل تيودور هو هذا:

لقد قامت العلاقة بين المسيحيّين والمسلمين منذ أربعة عَشَر قرنًا على روح الإقناع الفلسفيّ والحوار الدينيّ القائم على الطعن والذمّ والدفاعيّات (Apologétique) إلخ... وكان الوضع حتّى الآن يتأزّم كلّ مرّة ليصل إلى التصادم حتّى الدامي. فلِمَ لا نُجري مقاربة أخرى تقوم على فهم الآخر من داخل، وإبراز النقاط المشتركة في المعتقد والأخلاق والحياة المشتركة في بناء الأوطان... أظنّ أنّ هذه هي محصّلة فكر الأب عادل تيودر الحواري. وقد نجح في فهم الإسلام والمسلمين إلى درجة أنّ شيخًا إيرانيًّا، في مؤتمر من المؤتمرات في فيينّا، عند التفكير بشخصٍ يبني الجسور بين الإسلام والمسيحيّة، التفت بعفويّة إلى الأب تيودور وقال له: "أنت ابنِ هذه الجسور!"

هذا الفكر المنفتح المحاور، وهذا الإنسان الذي يشعّ منه السلام لم يكن لينكفء على نفسه، بل خلق دومًا حوله **شبكةً من الصداقات المتينة الراهنة**، في كلّ الأوساط الدينيّة والفكريّة والاجتماعيّة في الشرق والغرب. وإنّ بعضًا منها، كما أعلم، يعود إلى أيّام الطفولة وإلى تبنين بالذات مسقط رأسه، مع جيران مسلمين... وما يلفت النظر أن هذه الصداقة منفتحة وحقيقيّة، يظنّ فيها كلّ واحدٍ أنّه الصديق الأهمّ في هذه العلاقة المميّزة.

لا بُدّ لي من الإشارة إلى فضيلة أساسيّة في شخص الأب المحتفى به وفي فكره وفي بحثه وحواره، ولا ينِي يردّد ذلك في أحاديثه وكتاباته، هي **فضيلة الصبر على الذات والصبر على العلم والصبر على الآخر**. أمّا الصبر على الذات، فهو عدم التسرّع في تحقيق المرتجى وفي اكتساب ذهنيّة سلاميّة ناضجة للحوار. وأمّا الصبر على العلم، فهو الإرادة الثابتة لاكتسابه بالمثابرة على الجلوس إلى الطاولة في الغرفة وفي الجامعات وفي المكتبات، للمطالعة والبحث والتقميش... وأمّا الصبر على الآخر، فهو الاستماع إليه مطوّلاً لفهم ما يريد قوله ولفهم عمق تفكيره من جهة؛ ومن جهة أخرى ترك المجال للآخر أن يفهم ما أقول وأن يتغيّر ببطء. وفي هذا يحضُرُني مثل الابن الشاطر، ففيه لم يفرض الأب إرادته على الابن، بل تركه يُجري خبرته الخاصّة، وعندما عاد إلى ذاته، كان هو بانتظاره، وحدث اللقاء المرتجى.

لقد بدأتُ بالحديث عن الأب عادل تيودور الكاهن والمربّي، فلا بُدّ من ذكر الأب تيودور رجل الروح والقيم المسيحيّة، التي تخترق كثافة الإنسان، وترتقي به ليكون شعاعًا من حضور الله في هذا الكون. العدالة فضيلة من الفضائل الكبرى في المسيحيّة، وقد قال البابا بولس السادس في "ترقّي الشعوب": "إنّ العدالة هي الاسم الجديد للسلام". ونعرف أنّها القاعدة الأساسيّة التي ترتكز عليها فضيلة المحبّة المسيحيّة، إذ لا محبّة في الأساس دون عدالة حقيقيّة. والأب عادل، واسمه يدلّ عليها، سعى إلى إحلالها في كثير من الكتب والمقالات التي دبّجها والمؤتمرات التي نظّمها. فهي قيمة أساسيّة في تسيير العلاقات بين الشعوب والأديان.

لكن العدالة وحدها أحيانًا لا تكفي، لذا **كان للتسامح والصفح حيّزٌ واسعٌ** في تفكير الأب عادل وفي كلّ ما كتب وعمل، في سبيل تسهيل الحوار بين الأديان. وفي ذلك يقول كتاب أمثال سليمان الحكيم: "بالرحمة والحقّ يُفتدى الإثمُ وبمخافة الربّ يُحاد عن الشرّ. إذا رضي الربُّ عن طُرق الإنسان، ردَّ أعداءه أيضًا إلى مسالمته. القليلُ من العدل خيرٌ من الغلال الكثيرة بغير حقٍّ" (فصل 16: 7-9).

قد يطول الكلام في الأب عادل تيودور خوري الذي نكرّمه اليوم، ولكن خيرَ الكلام ما قلّ ودلّ، لذا أختم بكلمتين:

الكلمة الأولى هي كلمة اعتذار منكم أيّها الحضور الكرام، علّني أخطأت في بعضِ ما قلت، إذ يأتي الكلام دائمًا أعجز من أن يعبّر عن كلّ ما يودّ أن يقول، أو بأسلوب قد يشوّه ما يجب أن يُقال.

ثانيًا، أيّها الأب الحبيب عادل تيودور، عندما رافقتكم من المطار قلتم لي: "عندي أسبوع سأسمع فيه قسرًا كثيرًا من المديح والإعجاب" وكنت تتقبَّلُ الأمر بسكينة قلب. وهكذا كان. وقد قرأنا في أمثال سليمان الحكيم منذ أيامٍ في صلاة الأقداس السابق تقديسها جملةً تقول: "قَبْلَ المجدِ التواضعُ". وهذا يتحقّق فيكم، لأنّ التواضع عندكم،

وليس فقط التواضع العلميّ، هو الفضيلة الأساس التي يرتفع عليها صرحُ شخصكم الروحيّ والعلميّ والإنسانيّ، الذي نكرّمه اليوم عن حقّ. فالكلمة الثانية هي اعتذار منكم، يا حضرة الأب المحتفى به، عن أشياء قلتها، ولا تودّون أن تقال، أو قد تثلم تواضعكم. ولكن للحقيقة والتاريخ يجب أن تُقال، ولو مرّة واحدة، كما فعل يومًا شفيعنا القدّيس بولس الذي مجّد نفسه وافتخر. ولكن يبقى لكم التواضعُ، فضيلةً لا تُنتزع منكم. ونترك قليلاً للتاريخ وكثيرًا لذمّة الله أن يسطّرا كلّ المجد وكلّ الفكر وكلَّ الخير وكلّ التسامح وكلّ الحبّ الذي زرعتموه وتزرعونه في هذا العالم. فنحن اليوم جميعُنا حولكم لنضفي قليلاً من مجد التاريخ على ما تفعلون، فنرجوكم أن تقبلوا هذه الضُّمة من الأزاهر عربون شكر وحبّ وتقدير لوجودكم معنا هذا المساء ولكونكم من أبناء هذا البلد العظيم.
والشكر للرابطة الثقافيّة في أنطلياس التي أتاحت لنا هذا اللقاء.

كلمة الأب عادل تيودور خوري

نحن بحاجة إلى أفكار جديدة ومبادرات جديدة

1. مقدّمة

عالمنا – اليوم وفي المستقبل – بحاجة إلى قلوب جديدة، وأفكار جديدة، وشجاعة جديدة، ومبادرات جديدة.

عالمنا نراه، وللأسف، يزداد تمزّقًا وشللاً بسبب النزاعات والصراعات العنيفة. عالمنا تهزّه هزًّا يزداد بشدّة الاصطدامات المتكاثرة التي تزداد قساوة. والمتنازعون يفقدون بنوع واضح صبرهم ويهدّدون علنًا باستخدام القسر لتحقيق مصالحهم ومكاسبهم.

هذا ما يزجّ البشريّة في غموض مشنّج حيال أحوال الحاضر وتطلّعات المستقبل. ويصير السلام هشًّا. وتضيع العدالة، وتنحسر بشكل يشتدّ وضوحًا إمكانيّات التفاهم. المستقبل، مستقبل العالم ومستقبلنا في أقاليمنا وبلادنا تنغلق آفاقه، وتطبق عليه العتمة مِمّا يبعث على مزيد من القلق والحيرة.

لكنّ هناك سبيلاً آخر، هو سبيل الانفتاح على الحوار الدؤوب، وممارسة التعاون المثابر.

مع كلّ ما يُقال من تشكيك، ومع كلّ ما يُزرع على الدرب من عراقيل، يجب أن نعكف على ممارسة الحوار، وأن

نخوض مغامرة التعاون. فإنّه ليس لدينا بديل عن الحوار والتعاون.

على أساس هذه القناعة نرى بعض الناس، أفرادًا ومؤسّسات، يكرّسون ذواتهم بما لديهم من معرفة وعزيمة لخدمة الحوار. وينطلقون بهمّة لا يخدّرها الخِذلان في الطريق المرتكز على العدالة والسلام والمؤدّي إلى مستقبل أفضل. يمارسون بجهد عنيد الحوار والتعاون، ويحاولون دعمهما قدر المستطاع أينما عزم أناس أن يسلكون هذا السبيل عينه.

2. ماذا نريد وما هو الهدف؟

1- أيّ توجّه أساسيّ نتبع؟

1) نريد ممارسة الحوار وتعزيزه كوسيلة إلى الازدياد في المعرفة، وإلى توطيد تضامن أوسع بين جميع البشر. نريد الحوار سبيلاً إلى مصالحة فعّالة، إلى تصافٍ أوسع، حتّى ما بين الذين كانوا سابقًا أعداء، سبيلاً إلى إقامة ثقافة السلام وحضارة الرحمة والمحبّة.

2) ونريد إقامة التعاون النزيه الدؤوب، لإقامة السلام في الزمن الحاضر، وبناء المستقبل بروح الأخوّة. هكذا يمكن عالَمنا أن يضحي عالمًا واحدًا للجميع، عالمًا نكبّ فيه معًا على قضايانا ومشاكلنا المشتركة، ونبحث فيه معًا عن الحلول الموافقة، ونحاول أن ننفّذ معًا تلك الحلول المشتركة.

2- العوائق

إنّ العوائق الأساسيّة التي تعترض ممارسة مثل هذا الحوار ومثل هذا التعاون هي:

1) أوّلاً التزمّت والانعزاليّة. التزمّت والانعزاليّة مقبرة الحاضر وهاوية تنهار في ثناياها آمال المستقبل. فمن ظنّ أنّه وحده يملك حلّ القضايا جميعًا، لم يكن على وعي لأبعاد هذه القضايا وتشابك عناصرها. ويتعامى عن أنّ قضايا المجتمع لا تُحلّ إلاّ بمساهمة جميع أعضائه.

2) الجهل وانعدام الكفاءة. فمن لم يكن راسخًا في معرفة تراثه أو مبادئ اتجاهه لا يصلح للحوار المثمر. فإنّ الجاهل في أمور تراثه يتعلّق إمّا بالقشور السطحيّة، أو بالتقاليد العجاف، خوف الغرق في خضمّ لا طاقة له عليه. ومن لا يعرف تراث شريكه في المجتمع الواحد ومبادئ اتجاهه، لا يُحسن محاورته ومشاورته. فأسوأ ما يمكن أن يصيب دينًا أو جماعة، هو الجهل المتعسّف والتعصّب الجاهل.

3) الأحكام الطائشة والأحكام المسبّقة العنيدة. هي ورثناها من ماضٍ عكّرته الصِّدامات والعداوات، وتمسّكنا بها في الحاضر في وقفة مكابرة. إنّ من نتاج العدالة تنحيةَ هذه الأحكام المتراكمة والخلوصَ إلى جوّ

أشدّ هدوءًا، والحصولَ على استعداد منفتح للحوار وقابليّة للخوض في مجالاته.

4) عدم الصبر على الفكر. وهذا الفكر يقوم بالتحليل المليّ للأمور في عناصرها ودقائقها، وقرائنها وترابطها. ومن الصبر على الفكر الشجاعة في تقبّل حقائق الأمور، وإن كانت في وضعها الراهن غير مرضية. ومن الصبر على الفكر الإقدام على النقد الذاتيّ، لتنوير الفهم وتصفية القلب والتنبّه للنقائص، لا النقائص التي تعتري الآخرين، بل النقائص التي تعترينا نحن. فنعمل على تقليص حجمها أو تنحيتها. عدم الصبر على الفكر خطبٌ عصيب. والصبر على الفكر مدعاة للأمل باسترجاع العافية والتبصّر المثمر في الأمور.

5) عدم الصبر على المغايرة والاختلاف، مع العلم أنّ الزمن كلّه والتاريخ كلّه هو زمن صبر الله علينا، لكي نسعى إلى ردم الهوّة التي تفصل مسلكنا عن توجيهات مشيئته. فما أحوجنا في ما بيننا في هذا العالم إلى احتمال اختلافاتنا في الفكر والقول والعمل.

3. مستويات الحوار

هناك مستويات مختلفة للحوار:

- مستوى التعليم والأنظومات العقائديّة، وأنظومات القيم والقواعد الأخلاقيّة.
- مستوى التعاون.
- مستوى التبادل الثقافيّ والتعاون الثقافيّ.
- مستوى التبادل الروحيّ.
- مستوى العيش المشترك.

أودّ هنا أن أتطرّق بلمحة موجزة إلى هذه المستويات المختلفة.

1- الحوار الدينيّ في العقائد

1) لم يعد يفي اليوم بالغرض، كما كان الأمر في الماضي، أن يتوقّف كلّ محاور عند دينه الخاصّ، فيدافع عن حقيقة معتقده ويمجّد جميع نواحي دينه، دون إظهار أو ممارسة أدنى حدّ من النقد الذاتي. ولم يعد يفي بالغرض التحامل على دين الآخر ووصفه بأنّه ضلال تامّ.

هذا المنهج الذي مارسته الأجيال السالفة، لم يأتِ بنفع، بل سدّ سُبُل الفهم والتفاهم.

ما نحن اليوم بحاجة إليه هو الاحترام المبدئيّ لقناعات الآخرين الدينيّة، هذا حقّ لهم كبشر. ثمّ يقوم التبادل حول الفروق والتناقضات بين الأديان، في جوّ هادئ يدلّ على أنّ المتحاورين مستعدّون وأهلٌ للصبر على الاختلاف.

2) هذا يعني أنّ علينا أن نتعلّم قواعد ثقافة الجدال السلميّ ونمارسها. لا تعني ثقافة الجدل السلميّ هذه أن نتغافل عن مواضع الاختلاف أو نحطّ من أهميّتها، بل أن نبحث أوّلاً عن مواضع الاتفاق. هذه الأمور المشتركة هي الأساس الذي يمكّن الأطراف المتحاورة من بناء الجسور التي تصل بينهم، والذي يحمل هذه الجسور.

3) هذا كلّه يعتمد مبدأ التعاطف الناقد. فالتعاطف هو الذي يمكّن من استقصاء أمور الدين حتّى الوصول إلى لبّه واكتساب فهمه. والجهة الناقدة في التعاطف تبقي العين مفتوحة فلا تغيب عن البصر والبصيرة الأمورُ المتنازع حولها. التعاطف الناقد يمكّن من إقامة الحوار البنّاء، غير الساذج ولا الجامح في متاهات الأصوليّة المتصلّبة.

4) إنّ مثل هذا الحوار حول العقائد والتعاليم والشؤون اللاهوتيّة لا يكون دائمًا ممكنًا، وذلك بسبب نقص التخصّص في مناهج اللاهوت وعلم الكلام. وحيث يُفقَد هذا التخصّص ترى المتحاورين يأتون بمقولات عامّة عمّا يعرفونه ويمارسونه في نطاق دينهم الخاصّ، دون أن يقدّموا ما يُفترَض الإتيان به من معطيات دقيقة وحجج ضروريّة وبراهين مؤيّدة.

ومع ذلك، وهنا أتوجّه بالكلام إلى طلاّب وطالبات الجامعات والمعاهد العليا، يمكن اكتساب مناهج الفكر الصحيح التي تساعد على خوض مضمار الحوار الصحيح. أقصد هنا تلقّن منهج العمل العلميّ وتطبيقه، ذلك المنهج الدقيق الصارم الذي لا يكتفي بسماع ما يُقال، بل يسأل ويلحّ في السؤال عن الأسباب التي تؤدّي إلى ما يُقال. لا يكفي أن نعلم ما يقول به الآخر، بل علينا أن نعرف لماذا يقول بذلك.

ثمّ إنّه يصحّ القول التالي: مَن كَثُر علمه لا يميل بسرعة إلى التكبّر والانقباض على الذات والتزمّت والمواقف المتصلّبة. إن معرفة الدين تشير إلى تعالي الله من وراء معرفة الإنسان، ولا تؤكّد كمال المعرفة البشريّة وصفتها النهائيّة. معرفة الإنسان ناقصة دومًا... الله وحده هو الحقيقة المطلقة.

5) ينتج من ذلك أنّ كمال الحقيقة التي تلقّاها المسيحيّون حسب إيمانهم أو أتباع الأديان الأخرى حسب معتقدهم، لا يعني أنّ مؤمني هذا العصر من الأديان المختلفة قد استوعبوا هذه الحقيقة بجميع معطياتها وأبعادها وتفرّعاتها. إنّ البحث عن الحقيقة – أي في النهاية إنّ البحث عن الله – عمليّة لا نهاية لها، لأنّ الله لا تُسبر أغواره ولا توصف أبعاده وصفًا تامًّا. فهو العليّ المتعالي، وابتغاؤه مشروع لا ينتهي.

ثمّ إنّ الحوار في العقيدة لا يشترط في هدفه الأخير شرطًا مطلقًا أن يصل إلى التوفيق الشامل بين العقائد

المختلفة والقناعات المتناقضة بين المسيحيّين وغيرهم. فالمُقدِم على الحوار عليه أن يحترم أمانة المتحاور معه لدينه الخاص. إنّ الحوار يساعد على التغلّب على أشكال سوء الفهم وسوء التفاهم التي تراكمت عبر القرون، وعلى إزالة الأحكام المسبّقة المرتكزة غالبًا على عدم المعرفة والتسرّع في الحكم. وهكذا بالحوار الرصين وتبادل الفكر الناضج والبراهين المحكمة والاعتراضات التي تبحث عن مزيد من الفهم والمعرفة، يمكن أصحاب العلم أن يصلوا إلى تحديد دقيق لعناصر الاتّفاق ومواضع الاختلاف في عقائد المتحاورين.

6) وهناك أيضًا نتيجة لا يُستهان بها لهذا النوع من الحوار الرصين الصافي، وهي إنشاء جوّ تفاهم واستعداد للتقرّب بين المتحاورين. وفي كثير من الأحيان تنشأ بينهم مودّة وصداقة وأخوّة.

2- مستوى التعاون

1) منهج التعاون يختلف عن منهج الحوار بأن لا يجلس المخطّطون للتعاون على طرفَي الطاولة بعضهم مقابل بعض، بل يجلسون جنبًا إلى جنب ويعكفون معًا على تفحّص القضايا والمشاكل المشتركة.

- فيسأل كلّ واحد منهم نفسه ودينه عن المساهمة التي يمكن أن يؤدّيها لحلّ هذه القضايا.
- ويسأل كلّ واحد جاره عن المساهمة التي يمكن أن يقدّمها ليشترك في حلّ القضايا المشتركة.
- ويتساءل جميعهم عن المساهمة المشتركة التي يمكنهم أن يقدّموها لحلّ القضايا المشتركة.
- وأخيرًا يسأل بعضهم بعضًا: أيُّ مساهمة مشتركة يمكنهم أن يقدّموها بعزم مشترك لحلّ القضايا المشتركة.

2) يرتكز هذا التعاون الممكن على القيم الأخلاقيّة والقواعد المسلكيّة المبدئيّة التي هي في معظمها تراث البشريّة جمعاء، إذ إنّها حاصلة في مقولات جميع الأديان تقريبًا. ومع أنّ هناك فروقًا في تعليل هذه القيم وتطبيقها العمليّ، واختلافًا في بعض تشريعاتها المفردة، فإنّ من الواضح مثلاً أنّ الركائز الأخلاقيّة مشتركة في معظمها بين المسيحيّة والإسلام، انطلاقًا من وصايا الله العشر التي نقرأها في العهد القديم والعهد الجديد من الكتاب المقدّس، كما نقرأها في القرآن الكريم والتراث الإسلاميّ. لذلك يصحّ القول بأنّ السبيل المؤدّي إلى التغلّب على بعض الاختلافات يستند إلى حوار منفتح ودّي، حوارٍ المتكلّمين والسامعين في الوقت عينه، حوارِ المعطين والمتقبّلين، حوارِ المُهدين والمُهدى إليهم.

3) إنّ تعاون الأديان هو إذن، في وضع طبيعيّ ممكن، وذلك على صعيد النشاط الاجتماعيّ، مثلاً بإقامة علاقات عادلة بين الناس والجماعات، والتربية على السلام، ومساندة المعوزين، والقيام بمشاريع مشتركة. والواقع

العمليّ في العالم يوضح أنّ هذا ممكن ويطبّق هنا وهناك بنوع مثمر.

3- مستوى التبادل الثقافي

1) إنّ التبادل الثقافيّ يقرّب بين الناس، ويفتح النوافذ والأبواب لتقدير القيم والمنجزات الثقافيّة عند الآخرين. وهو يوسّع الآفاق ويقوّي الاستعداد للتعاون.

2) هنا أودّ أن أطرح اقتراحًا يتعلّق بمشروع له في نظري أهميّة كبيرة. وأختصر في العرض: نحن نعرف بما فيه الكفاية تاريخ نزاعاتنا وعداواتنا، ولكنّا ليست لدينا معرفة – أو هي معرفة ضئيلة – عن **تاريخ صداقاتنا**. البحث عن علامات الصداقة هذه وتدوينها مرجعًا للجيل الحاضر والأجيال المقبلة، هو في نظري مشروع ذو أهميّة كبرى يقدّم لنا مثالاً لتبديل حاضرنا وتخطيط مستقبل، مستقبل مشترك، يستتبّ فيه السلام ويقوم فيه العدل، ويتّصف بالرحمة والمحبّة.

4- مستوى التبادل الروحيّ

هناك شكل آخر من الحوار ولعلّه أعمق تبادل بين المؤمنين المنتمين إلى الأديان المختلفة، وهو تبادل الخبرة الروحيّة، وأحوال العبادة والتماس وجه الله... وكم من مرّة ارتاحت نفسي أنا شخصيًّا إلى حديث روحيّ جرى بيني وبين صديق لي من المسلمين الأتقياء، حين كان يصف لي حديثه مع ربّه في صلاته ودعائه. وكم من دعاء بين الأدعية التي جمعتها من التراث الروحيّ الإسلاميّ وترجمتها إلى الألمانيّة ونشرتها، ذكّرتني بنفحات الروحانيّة المسيحيّة. ولا عجب. فإنّ القرابة بين روحانيّة الإسلام وروحانيّة المسيحيّة أوثق ممّا يظنّ البعض، وأشدّ ممّا يتوهّم البعض الآخر.

5- مستوى العيش المشترك

العيش المشترك الناجح بين أبناء الوطن الواحد، والمنطقة الواحدة، أيًّا كان انتماؤهم الدينيّ، ينمي لديهم الاحترام المتبادل، والتقدير الرضيّ، ويعزّز الاستعداد للتصافي ولإقامة علاقات صداقة ومودّة. ويدفع عزائم الجميع إلى العمل لخير الجميع بعيدًا عن الأنانيّة والسعي المجحف وراء المصلحة الخاصّة على حساب الآخرين وعلى حساب الخير العامّ.

4. الحقيقة التي يجب عملها

إنّ الحقيقة ليست فقط الحقيقة التي نؤمن بها ونعبّر عنها ونحاول تركيزها على البراهين والدلائل. الحقيقة الدينيّة هي في المقام الأوّل الحقيقة التي يجب أن نعملها (كما ورد في إنجيل يوحنّا 3: 21). هذا يقتضي أن نتّخذ القيم الأخلاقيّة التي ينادي بها دينُنا قاعدةً لإقامة علاقات طيّبة مع الآخرين وأن نخطّط ونمارس معهم التعاون المثمر.

إن تمكنّا، مسيحيّين ومسلمين، من توجيه سلوكنا وفقَ القيم المشتركة بين المسيحيّة والإسلام، استطعنا أن نُشيّد نظامًا اجتماعيًا إنسانيًا، يرتكز على احترام كرامة الإنسان وتكون ثماره ما يأتي:

1) إقامة عدالة أخويّة.

2) تنفيذ الحقوق والواجبات تنفيذًا رحيمًا.

3) منح الأولويّة لحقوق الضعفاء، وتوجيه الاختيار في العمل لصالح الفقراء والمحرومين.

4) الاستعداد للمصالحة.

5) عرض المصالحة عرضًا إيجابيًا على أعضاء الجماعة الدينيّة الأخرى، أي أن يعرض المسيحيّون على المسلمين المصالحة الشاملة وأن يعرض المسلمون على المسيحيّين المصالحة الشاملة، فيتمّ التصافي بينهم.

6) إبدال العمل في سبيل التسلّط والحكم على الآخرين بالسعي إلى الاهتمام بالسلام وصيانته وتوطيده

خاتمة

إنّ مستقبل العالم وعالم المستقبل بحاجة إلى نشاطكم والتزامكم، إلى أفكاركم الجديدة ومبادراتكم الجديدة.

مستقبل العالم وعالم المستقبل بحاجة إلى خدمة المصالحة والتصافي وإلى الجهود والمتضافرة التي تضمّ الكثيرين في السعي نحو هدف واحد.

بدل عالم متمزّق، يجب أن يطلع علينا وعلى الأجيال القادمة

- عالم جديد، يسود فيه السلام في القلوب وبين الشعوب.
- عالم جديد تعتبر فيه الثقافات المختلفة غنًى وكنـزًا.
- عالمٌ جديد لا يخيّب آمال الأجيال الطالعة.

- عالمٌ جديد يحلو فيه لنا وللجميع في المستقبل أن نحيا ونعمل.
- عالمٌ جديد يستقرّ عليه نور الله ويحلّ عليه رضوانه ومحبّته.

جميع الحقوق محفوظة .Copyright © 2019